2271
.255
.346

2271.255.346
al-Hakim
Himar al-hakim

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072538919

حمار الحكيم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميزت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

al-Hakim, Tawfiq

Himār al-ḥakīm

حمار الحكيم

قال الحكيم « توما » : متى ينصف الزمان فأركب ،
فأنا جاهل بسيط ، أما صاحبي فجاهل مركب !
فقيل له : وما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المركب ؟
فقال : الجاهل البسيط هو من يعلم أنه جاهل ،
أما الجاهل المركب فهو من يجهل أنه جاهل !

« أسطورة قديمة »

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميزت : ٤٦٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ — محمد
٢ — شهر زاد
٣ — أهل الكهف
٤ — عودة الروح (جزءين)
٥ — تحت شمس الفكر
٦ — تاريخ حياة معدة
٧ — عهد الشيطان
٨ — براكسا أو مشكلة الحكم
٩ — راقصة المعبد
١٠ — نشيد الإنشاد
١١ — حمار الحكيم
١٢ — سلطان الظلام
١٣ — من البرج العاجي
١٤ — تحت المصباح الأخضر
١٥ — أهل الفن
١٦ — بجماليون
١٧ — القصر المسحور
١٨ — المسرحيات (أول)
١٩ — المسرحيات (ثاني)
٢٠ — يوميات نائب في الأرياف
٢١ — عصفور من الشرق
٢٢ — سليمان الحكيم
٢٣ — زهرة العمر
٢٤ — رصاصة في القلب
٢٥ — الرباط المقدس
٢٦ — حماري قال لي
٢٧ — شجرة الحكم
٢٨ — الملك أوديب
٢٩ — قصص توفيق الحكيم
٣٠ — مسرح المجتمع
٣١ — فن الأدب
٣٢ — ذكريات الفن والقضاء
٣٣ — أرني الله
٣٤ — عصا الحكيم
٣٥ — دقت الساعة
٣٦ — تأملات في السياسة
٣٧ — التعادلية
٣٨ — إيزيس
٣٩ — الصفقة
٤٠ — المسرح المنوع

2271
.255
.346

كتب للمؤلف

نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد

ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر « نويل ايديسيون لاتين » وترجم إلى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر « بيلوت » بلندن ثم فى دار النشر كراون بنيويورك فى عام ١٩٤٥

عودة الروح

ترجم ونشر بالروسية فى ليتنجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار فاسيكل للنشر. وبالإنجليزية ونشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢

يوميات نائب فى الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة العبرية فى دار « هارفيل » للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥

أهل الكهف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرنس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤١

عصفور من الشرق (ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة الأجنبية

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

سليمان الحكيم : » » » » » » » »

نهر الجنون : » » » » » » » »

عرف كيف يموت : » » » » » » » »

المخرج : » » » » » » » »

بيت النمل : » » » » » » » »

الزمار : » » » » » » » »

« فى مجلة بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر « نوفيل ايديسيون لاتين » بباريس

مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٩

السياسة والسلام : » » » » » » » »

الشيطان فى خطر : » » » » » » » »

بين يوم وليلة : » » » » » » » »

العش الهادى : » » » » » » » »

أريد أن أقتل : » » » » » » » »

الساحرة : ترجم ونشر باللغة الفرنسية فى باريس فى عام ١٩٥٣

دقت الساعة : » » » » » » » »

ألشودة الموت : » » » » » » » »

لو عرف الشباب : » » » » » » » »

الكنز : » » » » » » » »

الى صديقى

الذى ولد ومات وما كلمنى

لكنه ..... علمنى !

١

عرفته فى يوم من أيام الصيف الماضى . فى قلب القاهرة وفى شارع من أفخم شوارعها . كنت أسير فى ذلك الصباح إلى حانوت حلاق . وكان الهواء حاراً ممزوجا بنسيم لطيف . وكان صدرى منشرحا فقد صادفت وجها مليحا ، لغادة شقراء هبطت معى بكلبها فى مصعد الفندق الذى أتخذه منزلا ، مشيت وأنا أكاد أصفر بفمى وأترنم وأشرفت على حانوت الحلاق . . وإذا أنا أراه . أرى ذلك الذى كتب لى أن يكون صديقى . رأيته يخطر على الإفريز كأنه غزال ، وفى عنقه الجميل رباط أحمر وإلى جانبه صاحبه : رجل قروى من أجلاف الفلاحين . ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقون ، وبجمال منظره ورشاقة خطاه يعجبون . لقد كان صغير الحجم كأنه دمية . أبيض أبيض كأنه قُدَّ من رخام ، بديع التكوين كأنه من صنع فنان . وكان يمشى مطرقا فى إذعان ، كأنما يقول لصاحبه : اذهب بى

إلى حيث شئت فكل ما فى الأرض لا يستحق من رأسى عناء الالتفات .

ذلك هو « الجحش » الصغير الذى استرعى أنظار الناس فى ذلك الشارع الكبير . ومنظر جحش فى مثل هـذا الحى كاف وحده لإلقاء العجب فى النفوس . ولكن هـذا الجحش كان ولا ريب جميلا فى الجحوش . فقد كانت عيون المارة تشع بالإعجاب قبل العجب . ووقفت به سيدات انجليزيات داخلات محل « جروبى » فما تمالكن أنفسهن من إظهار الحب له . فلو أنه شىء يحمل لما ترددن فى اقتنائه وحمله كما تقتنى الحلى وتحمل . وكان صاحبه يريد بيعه فيما خيل إلى . فلقد سمعته يقول لمن أحاط به من مارة وباعة صحف وغلمان :

— بخمسين « قرش » !

وكانت قدماى على الرغم منى تسيران بى مع الجمع المحيط بالجحش . وكانت عيناى على الرغم منى لا تنحرفان عن النظر إلى هـذا المخلوق الصغير الجميل وإذا بفمى على الرغم منى

ينطلق صائحا :

ـ بثلاثين « قرش » !

فالتفت الجمع كله نحوى . ودار لغط وارتفع كلام ، وإذا بى أرى رجلا قد انبرى من بين الجمع : هو بائع صحف يعرفنى ويبيعنى صحفه ، قد تطوع للعمل باسمى ، فجذب الجحش من يد صاحبه الفلاح الحريص : وصاح فى وجهه :

ـ سيدنا البك أمر ، أمره يمشى على رقبتنا !

فأطبق الفلاح يده على عنق الجحش وصاح :

ـ ثلاثين قرش ! هو فرخة رومى !

ـ عيب يا جدع انت ترد على البك الكلام !

ـ والله ما افرط فيه بأقل من أربع برايز !

وحمى الشـــد والجذب بين الرجلين . حتى كاد ينخلع فى أيديهما عنق الجحش المسكين . وانتهى الأمر بانتصار سمسارى المتطوع . فقـــد صارت فى يده البضاعة قسراً . والتفت إلى قائلا :

ـ هات يابك الثلاثين « قرش » !

فتردد البائع وتراخى ولكنه أراد مع ذلك أن يحتج قليلا فأغلق الرجل فمه بقبضته وصاح :

ـ اسكت الا « اخر شمك » ! هات ياسيدنا البك الفلوس واستلم الجحش مبارك عليك ! بيعه حلال بنت حلال !

وتقدم نحوى ساحبا الحمار ليسلمنى قياده الأحمر المتدلى من عنقه . هنا ذهبت السكرة وجاءت الفكرة . لقد تمت الصفقة من حيث لا أرجو فى حقيقة الأمر ولا أنتظر . فقد جرى كل شىء وأنا فى شبه غيبوبة فالثمن الذى حددته بثلاثين قرشا انما خرج من فمى دون تفكير أو تدبير . رقم لفظ على سبيل المداعبة . فاذا الهزل يصبح جـــدا ... ودخل الآن الجحش فى ملكى وحيازتى . فما عساى أصنع به الآن وأنا داخل حانوت الحلاق . وأين أضعه ولا منزل لى غير حجرة وحمام فى فندق معروف ؟

وفوق هذا فجيبى كان خلوا وقتئذ من مبلغ الثلاثين قرشا .

فلم أكن احمل ذلك الصباح غير ورقة مالية كان فى عزمى استبدالها بنقود صغيرة . فأردت الرجوع فى الصفقة . فتعذر على الأمر . ولا حقنى البائع والسمسار بالحمار .

فقلت منزعجاً مرتبكا وأنا أشير إلى حانوت الحلاق

ــ لكن . . أنا داخل أحلق ...

فأجاب بائع الصحف من الفور !

ــ تفضل حضرتك احلق فى أمان الله . وأنا أقعد لك « بلا قافية » بالجحش على الباب فى انتظارك !

فقلت متململا حائرا :

ــ وحتى المبلغ . . .

فعالجنى الرجل قائلا :

أنا أفك لحضرتك حالا من عند الدخاخنى . . . وسد الرجلان فى وجهى المسالك ، ولم يشفع لى عندهما قول ولا حجة . ولم يفد اعتذار . ولزمنى الحمار . فأذعنت . وأشرت اليهما فتبعانى به إلى حانوت الحلاق . ودخلت . فقلت للحلاق

أن يؤدى عنى الثمن من صندوقه . فأداه . وانصرف الفلاح ووقف بائع الصحف على باب الحانوت بالجحش . يطرد المتجمعين حوله من المارة والغلمان وأهل للفضول . وأنا جالس أفكر فى الأمر وما أنا صانع بعد ذلك بهذا الحمل ، والحلاق يلطخ ذقنى بالصابون ويتغزل فى جمال الجحش ويثنى على رزانته ويتحدث عما يلزم له من الغذاء والخدمة . ويتنبأ بما ينتظره من مستقبل باهر يوم يغدو كالفرس الأشهب . . . وبقية « زبائن » الحانوت ينظرون إلىّ وإلى كل هذا ويكتمون ضحكهم ويخفون فى رؤوسهم ماخالجهم فى أمرى من ظنون ، إلى أن فرغت من الحلاقة فنهضت ودفعت الورقة المالية إلى صاحب الحانوت فأخذ ماله عندى . وخرجت فاستقبلنى بائع الصحف . وقدم إلى زمام الجحش وهو يقول :

— اطلقه حضرتك يجرى فى الجنينة !

فقلت كالمخاطب نفسى :

لو كانت الجنينة موجودة لهانت المسألة . .

فقال الرجل :

ـ اطلقه على السطح والا فى « الحوش » مع من غـير مؤاخذة الخرفان .

فقلت وقد تخيلت مسكنى فى الفندق :

ـ وان كنا نطلقه فى الحمام . . .

فقال الرجل فاغراً فاه :

ـ الحمام . . ؟!

فلم أرد على اعتراضه واستغرابه وقلت له آمرا :

اسبقنى به على لوكاندة (. . . . .)

* * *

نعم لقد فكرت فى الأمر فوجدت أن هذا الجحش الجميل ليس أهون قدراً ولا أقل ظرفاً من ذلك الكلب الذى رأيته اليوم فى صحبة الفتاة الشقراء . فما الضرر فى أن يصحبنى اليوم فأنزله ضيفاً على يقاسمنى حجرتى حتى العصر ، لقد كنت أزمع السفر عصر ذلك اليوم بالذات إلى ريف قريب فى مهمة غريبة ،

يأتى بيانها عما قليل . . . فليبق معى إذن إلى أن أذهب به إلى الحقول فأطلقه يرتع فيها ويمرح . على أن ما شغل بالى هو أمر طعامه اليوم . لقد كان الحلاق يتحدث فيما تحدث عن غـــذائه إنه لن يطعم غير اللبن فهو رضيع فيما ، يرى ، ابن يوم أو يومين وقد انتزع من ثدى أمه انتزاعا ليباع فى شوارع القاهرة . ولعل ذلك لعسر وقع فيه صاحبه فالفـــلاح إذا جاع باع كل ما يمكن أن يباع . من يدرى لعل هذا الرضيع اليتيم هو آخر حلقـــة فى سلسلة شقاء طويل . ولم استرسل فى التـــأمل . فقد تجمع حولنا الناس من جديد . فأشرت إلى بائع الصحف أن يسرع بالجحش أمامى وأنا أتبعه عن كثب . فجذبه من رباطه الأحمر . فمشى المسكين مشيته الرزينة فى إطراقه وإذعانه ، دون أن يعنى بتبدل الصاحب وتغير المصير . وجعلت أتأمله من بعيد فى مشيته أنها تشبه مشيتى أحيانا . إذ يخيل إلى فى لحظات كأن رأسى قـــد ارتفع عن لجة الوجود المنظور إلى فضاء الوجود غير المنظور فأمر بالحياة مذعنا . لا أحفل بمن معى بمعرفة وجهتى .

نعم ، إن مشيتى كمشيته أحيانا ، ونظراتى أحيانا كنظراته الجامدة المشرفة على عالم ساكن صاف مجهول ، قد أغلقت دون الآدميين أبوابه السبعة المختومة بسبعة أختام ...

اللهم اغفر لى هذا الغرور ، إذ أرفع نفسى إلى مقام التشبه بهذا الكائن العجيب !

٢

بلغنا الفندق . فأومأت إلى أحد الخدم الواقفين ببابه . فأقبل نحـــوى . وهو نوبى أمين اعتاد أن يقوم بخدمتى ويعنى بأمرى واعتدت أن أسخو عليه وابذل له فى العطاء . فلما دنا منى أريته الجحش فى يد « السمسار » . وطلبت إليه همساً أن يحمله بين ذراعيه ويصعد به « سلم الخدم » ويضعه خفية فى حمام حجرتى . فحملق الرجل فى وجهى بعينيه . فأخرجت من جيبى قطعة فضية دسستها فى كفه ، أفاقته من عجبه ، وهيأته لصنع المستحـــيل . فأطبق على الجحش واحتضنه وذهب به وهـــو يتلفت يمينا وشمالا خشية أن يراه من يوشى به لدى مدير الفندق .

ونظرت إلى بائع الصحف فرأيته يفرك كفيه فى انتظار الأجر . فدفعت إليه هـــو الآخر قطعة فضية لثمها سروراً . وانصرف وهو يرفع يديه إلى السماء ويقول :

— ربنا يهنيك به ! ربنا يبقيه لك ! ربنا ما يحرق لك عليه كبدا !

وغاب عن عيني في منعطف الطريق . وأنا أنظر إليه ولا أدري ان كان يسخر مني أم يقول جداً . . .

ودخلت الفندق من بابه الكبير الدائر ووقفت في البهو قليلا اتصفح وجوه النازلين فيه من سائحين وسائحات ، ثم ارتقيت بالمصعد إلى حجرتي في الطابق الخامس ، ودخلتها فألفيتها كما تركتها ، كل شيء فيها قائم في مكانه على أحسن ترتيب . كتبي وورقي فوق المكتب وملابسي في الخزانة وفوق المشجب . و « جراموفوني » واسطواناتي . . . وأواني الزهر فوق المناضد . وأصص الورد على حاجز الشرفة . لا شيء مطلقا يدل على أن هذا المكان « دابة ركوب » . واتجهت إلى الباب الصغير الموصل إلى الحمام الملحق بحجرتي وفتحته وإذا أنا أمام الجحش واقفاً رزيناً مطرقاً على عادته . فتأملته لحظة في إعجاب ، ثم تركته إلى هدوئه وصفائه ، وعدت إلى الحجرة وضغطت على زر الجرس ثم ارتميت في مقعدي الكبير

إلى جوار باب الشرفة . ومالبث بابى أن طرق علىّ . ثم ظهر خادم الطابق .

فابتدرته قائلا :

ـ واحد قهوة لى ، وواحد لبن للـ... وأشارت عينى على الرغم منى إلى جهة الحمام . ولكنى لم أستطع أن أتم الكلام ... فهذا الخادم ليس عنده بعد علم بالموضوع .

فقال سائلا فى أدب :

ـ لمين !

ـ لـ.. بعدين تعرف .

قلتها على عجل وأنا أومىء إليه بيدى لينصرف إلى تلبية الأمر . وذهب الخادم ثم عاد بعد قليل يحمل صينية جميلة من « الكريستوفل » عليها فنجانان نظيفان وابريقان لا معان . ووضع أحد الفنجانين مع ابريق القهوة أمامى ثم وضع الآخر مع ابريق اللبن تجاهى وجذب كرسيا من ركن الحجرة وضعه أمام الفنجان الثانى ، فما تمالكت نفسى من الابتسام . وخرج

الرجل وأغلق خلفه الباب فى لباقة وكل شىء فيه يدل على أنه قد فهم . . فهم ماقد يخطر على بال خادم فندق اعتاد أن يحضر « طلبات » المواعيد اللطيفة ، فى الخلوات الظريفة .

وما كدت أخلو إلى نفسى ، حتى أسرعت إلى الحمام بفنجان من اللبن وضعته على « سجاد الفلين » تحت فم الجحش . وانتظرت أن يرشف هذا الصديق من اللبن رشفة أو رشفتين . فاذا هو جامد لا يتحرك وإذا عيناه تنظران إلى الفنجان فى غير اكتراث . كما تنظر عين الزاهد إلى لذات الحياة . فعجبت وقلت فى نفسى : هذا مستحيل . مهما يبلغ زهد هذا الفيلسوف فان فنجانا من اللبن لا يعد من الترف فى شىء ولا أحسب بعد أن هذا المخلوق الصغير يستطيع أن يتحمل الصوم وقتاً طويلا . لابد من علة فى الأمر . وأعجزنى معرفة السبب . فأنا حديث عهد بمعرفة طباع هذا النوع الطريف من المخلوقات فان جل معارفى منحصرة فى ذلك النوع المبتذل الذى يسمونه النوع « الانسانى » . وهو على ما رأيت منه لا يأبى مطلقاً التهام مايقدم

إليه مما يؤكل ومما لا يؤكل .. حتى لحم أخيه . وهو دائما جوعان عطشان إلى شيء . وهو لا يصنع شيئا إلا لغاية ومآرب ، حتى فى صلاته وصيامه . ورأيت آخر الأمر أن استرشد بالحلاق فهو فيما خيل إلى عليم بمالا أعلم من هذا الأمر . فتركت حجرتى وهبطت إلى الطريق سريعاً . ومشيت إلى حانوت الحلاق . وإذا بى أعثر « بالسمسار » فما كاد يرانى حتى صاح بى باسماً :

— ازاى حال « اسم الله عليه » . .

فضحكت وقلت له :

— اسمع يا . . انت اسمك ايه ؟

— محسوبك دسوقى .

اسمع يادسوقى . انت مش قلت انه يشرب لبن

— معلوم يشرب لبن .

— وايه رأيك انه مارضاش حتى يلتفت للفنجان !

فحملق الرجل فى وجهى وقال :

فنجان ؟

فقلت :

ـ أيوه ... طلبت له واحد لبن ...

فقاطعني الرجل صائحاً :

ـ طلبت له واحد لبن !! هو من غير مؤاخـــذة سواح من السواحين !! دا ياسيدنا البك جحش ابن يومين بالكثير بيرضع من بز أمه . دا لازم له من غير مؤاخـــذة « بزازة » من الأجزخانة !

فأدركت فى الحال مقدار جهلى وغباوتى وقلت :

ـ آه ، صحيح . عندك حق !

وتركته . وأسرعت إلى أجزخانة قريبة فدخلتها وطلبت من فورى « بزازة » .

فسألنى الأجزجى :

ـ الولد عمره أد إيه ؟

فأرتبكت وقلت :

ـ والله .. مش ولد ...

فقال الأجزجى :

— البنت .

— ولا بنت .

فحملق الرجل فى وجهى كالمخاطب لنفسه :

— لا ولد ولا بنت ! يبقى إيه . فيه نوع ثالث جديد ما أعرفوش ؟ !

فأردت أن أوفر عليه مؤونة العجب فبادرت قائلا :

— هو فى الحقيقة ...

— آه مفهوم ... مش ابن حضرتك ...

— إبنى ؟ ! طبعاً لا ، مش ابنى ، دا جحش صغير .

— جحش ؟ ؟ آه ... أنا آسف ... لا مؤاخذة ! ...

وظهر على الأجزجى الحرج وأسرع يحضر لى ما طلبت وقدم إلى زجاجة كبيرة فى طرفها ثدى من المطاط وقال :

— دى بزازاة كبيرة تنفع كمان لجحش كبير .

لا مؤاخـــذة ! ...

فابتسمت وقلت له

ـ العفو لا داعى للمؤاخذة .

وأنقدته الثمن .... وخرجت أحمل « البزازة » عائداً بها إلى الفندق . وصعدت إلى حجرتى . فوجدت بابها مفتوحا . وذكرت أنى تركته كذلك سهواً عند ذهابى . واتجهت من فورى إلى الحمام ، ففطنت إلى أنى نسيت إغلاق بابه أيضا قبل انصرافى . والقيت من فورى نظرة فى أنحاء المكان فلم أجد أثراً لصاحبى فأسقط فى يدى . وحرت فى أمرى . أين وكيف اختفى ؟ أتراه خطف أم تسرب ؟ وخرجت إلى بهو الطابق . فاذا بى أسمع ضحكات رقيقة تنبعث من إحدى الحجرات . فمشيت نحو الصوت . فألقيت نفسى أمام حجرة بابها مفتوح . وأبصرت الجحش واقفا أمام مرآة طويلة لخزانة ملابس يتأمل نفسه مليا ، وإلى جانبه الغادة الشقراء تضحك عن ثغر يسطع نورا ...

لم أدر ماذا أصنع . فلزمت موقفى أنظر ولا أنبس إلى أن

حانت من الفتاة التفاتة شطر الباب ، فرأتنى ورأت « البزازة » فى يدى . فأدركت ونشطت نحوى تقول :

— عفوا ياسيدى ... أهو ... ؟

— نعم ياسيدتى .. هو ..

وأومأت برأسى إيماءة تفصح عن صلتى بالجحش فضحكت وأقبلت على تقول :

— لقد كاد يحدث ثورة فى الطابق منذ قليل ولكنها ثورة لطيفة . لقد جعل يسير فى البهـــو بكل اطمئنان ، ويدخل كل حجرة يجـــد بابها مفتوحا ، ويتجه توا إلى كل مرآة يصادفها فيطيل النظر إلى نفسه . لقد سمعت قاطن الحجرة المجـــاورة يلفظ صيحة دهش . فلقد كان أمام مرآته يعقد رباط رقبتـه وإذا هو فجأة يرى فى المرآة أن بين ساقيه جحشاً . قالت الفتاة ذلك وأغرقت فى الضحك . فضحكت أنا أيضاً . ثم سألتها :

— وكيف استقر به المطاف فى حجرتك ؟

فأجابت :

ـــ بعين الطريقة . يبدو لى أنه انطلق من بين قدمى الجار منفزعا من صيحته ، واتجه إلى بابى ، فدخل على بغير استئذان ، وتأمل صورته فى مرآتى بغير أن يعيرنى التفاتا .

فقلت :

ـــ يالله من أحمق ! شأن أكثر الفلاسفة ! يبحثون عن أنفسهم فى كل مرآة ولا يعيرون الجميلات التفاتا !

فابتسمت عن ثغرها البديع ابتسامة رضا . وقالت وقد اتخذ وجهها هيئة الجد فجأة :

ـــ حقا لست أدرى ماشدة اهتمامه بهذا الأمر

فقلت :

ـــ لقد نسى فيما أرى شأن جسده وأنكر أمر « المادة » فهو لم يطعم شيئا حتى الساعة .

فأشرت إلى « البزازة » فى يدى :

ـــ ألم تقدم له شيئا من اللبن ؟

ـــ قدمت له ذلك فلم يعجبه

وقصصت عليها مافعلت ، فضحكت منى كما ضحك السمسار من قبل . وقالت :

— يبدو ياسيدى أنك لم تكن قط أبا

فقلت

— صدقت فراستك ياسيدتى . . ذاك أول عهدى بالأبوة !

فمدت يدها نحو « البزازة » وقالت :

— اذا أذنت فإنى أتولى عنك هذه المهمة . فإن المرأة على كل حال أحذق . . . بمثل هذا العمل وأجدر .

انها منة عظيمة وفضل منك ياسيدتى . . . لا أنساه . . .

قلت ذلك وتركت لهـــا الجحش وأداة إطعامه ، وقدرا من اللبن أمرت بحمله اليها . . . وانصرفت إلى شأنى حامداً شاكرا . . .

٣

كانت المهمة التى اقتضت ذهابى إلى الريف ذلك اليوم ثقيلة على نفسى على غرابتها . ولها قصة يحسن بى أن أوردها هنا تفصيلا : كان ذلك منذ أسبوع عصر يوم اشتد حره ، فاستلقيت على مقعدى الكبير مستقبلا باب الشرفة استجدى بعض أنفاس نسيم عابر . وإذا جرس التليفون بقربى يدق فتناولت « السماعة » بيد مسترخية ، دون أن أتحرك من مكانى وسمعت صوت عاملة التليفون المركزى بالفندق تصلنى بصوت آخر فى الخارج لرجل يتكلم الفرنسية ويعلن إلى أنه يطلب موعداً للقائى .

فسألته عما يريد فقال إنه مندوب شركة للسينما وانه يود محادثتى فى شأن يتصل بهذه الأعمال . فضربت له موعدا فى مساء ذلك اليوم فى بهو الفندق . فلما أقبل على ، وجدت رجلا فى طور الشباب ، أشقر الشعر ، حليق الشارب أنيقا رشيقا حيانى فى احترام . وجلس يحدثنى فى طلاقة ولباقة عن شريط

سينمائى تصور أكثر وقائعه الريف المصرى وتدور حوادثه فى قرية مصرية ويقوم بالكثير من الأدوار فيه الفلاحون أنفسهم دون الالتجاء إلى ممثل محترف من الممثلين المصريين ، حتى يستوثق من صدق الصور . وان يوضح كل ذلك داخل إطار قصة سينمائية قدتم وضعها بالفعل . وان المتولى إخراج هذا كله والانفاق عليه شركة سينمائية فرنسية فقاطعته فى رفق :

— وماذا تريدون منى بعد كل هذا ؟

فقال :

— الحوار .

ثم أخرج من محفظة صغيرة يحملها نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة باللغة الانجليزية ثم نسخة أخرى باللغة الفرنسية لسيناريو موضوع ، قدمها إلى وقال :

— تسهيلا للأمر أسمح لى ابسط القصة فى كلمتين . وجعل يسرد لى حكاية طويلة عريضة لم أميز لها رأساً من ذنب . وأنا بطبعى غير قدير على الإصغاء إلى متكلم أكثر من خمس دقائق ،

أهيم بعدها فى وديان وأوغل فى سحب ، وأنسى وجودى ووجود من معى . أنه شرود طالما حال بينى وبين الاستمتاع بالمحاضرات القيمة . وهو أحيـــانا يفاجئنى حتى فى دور السينما والتمثيل . بل وفى مطالعة الكتب .

ويخيل إلى أن الأصل فى فكرى أنه كالغاز الشائع يقتضينى دائما الجهد لجمعه وحصره . فاذا توانيت قليلا انفرط منى وعاد إلى حالته الأولى ، لذلك لم أفطن للرجل أمامى إلا وهو يوجه إلى الكلام وقد فرغ من قصته فيما يظهر .

— موضوع طريف . أليس كذلك ؟

— جدا ، جدا .

قلتها وأنا أبدى شدة الاهتمام . على أن صوتى ما كان ينم عن تحمس والواقع أنى كنت فى ذلك الوقت بعيـــدا عن التحمس لأى شىء . فقيظ يونيو وعملى الماضى طول العـــام الماضى ، والأحداث التى صادفتنى خلاله . كل أولئك أنهك أعصابى ، وجعل منى شخصاً لا يصلح إلا للاستلقاء على المقاعد

والتفكير فى البواخر واعداد برامج الصيف فى أوروبا ، واقتناء آثار « توسكانينى » و « برونوفالتر » لا ريب أن طلب هذا السينمائى كان يملؤنى سروراً لو تقدم به قبل شهرين . فالسينما طالما أغرتنى . والعمل الذى يعهد به إلى أصنعه من غير شك بأطراف أصابعى فما حوار لسيناريو عدد صفحاته لا يربو على العشر ، كهذه الصفحات التى يضعها الآن بين يدى لكن . . من سوء الحظ . . أنى كنت فى ذلك اليوم على حال عجيبة لم أعهد نفسى على مثلها قط يوما فلو طلب إلى طالب أن أنفخ الهواء بفمى لضقت بذلك ذرعا ولقد تجمعت وقتئذ كراهتى وعدوانى وانحصرت فى شىء واحد اسمه : الكتابة وكل مايحتاج إلى كتابة . فكتابة رسالة طامة كبرى . وكتابة بطاقة مصيبة نازلة . وكتابة مقال قد يدفعنى إلى إرتكاب جريمة فلما طلب إلى الرجل آخر الأمر رأيى فى هذا العمل أجبته صراحة بأنى آسف حقيقة لتعذر قيامى به . فقد انتهى موسم عملى . وقد حددت موعد السفر وانتهى الأمر . فسألنى الرجل :

— ومتى السفر ؟

— فى أوائل يوليو .

— حسن جدا . . مازال أمامنا شهر ، وهذا يكفينا

— مهما يكن الأمر ، فأنى لا أظن فى مقدورى أن أعد بشىء . وانفض مجلسنا . ولم يقنط الرجل وترك نسختيه لأطالعهما ، وهو واثق أن مجرد قراءتى القصة سيبعث فى نفسى الرغبة فى إنشاء الحوار . وانصرف على أن يعود إلى فيما بعد وحملت أنا أوراق روايته فوضعتها حيث رقدت بما تحويه من أبطال برار أو أشرار ، ما أدرى ، رقادا لم أوقظهم منه حتى وافانى الرجل فى اليوم التالى يحادثنى فى أمرهم مرة أخرى ، ويستفسرنى بعض أحوال الريف . وأنا أجيب إجابات مقتضبة حينا مسهبة حينا . آخر ولكنى فى كل الأحيان كنت أخفى تبرمى تأدبا فالرجل ظريف . وهو فيما رأيت حريص على إرضائى واستبقائى كلما أبديت له عذرى . فلقد عرضت عليه استعدادى لا حاطته بكل ماينفعه من أخبار الريف على

أن يكون ذلك أثنـــاء محادثات كمحادثاتنا تلك كلما سنحت لنا فرصة اللقاء. أما ان ارتبطت بعمل أسأل عنه فى ذلك الوقت، فهو موقف لا أحب أن أضع نفسى فيه. ثم أشرت عليـــه أن يتصل بكاتب أعرف أنه ممن خبروا هـــذه الأعمال. فتجهم وجه الرجل وقال:

— إن الشركة ذكرت اسمك بالذات.

— عجبـــا!

قلتها وقد بدا عـــلى وجهى من غير ريب إلى جانب الدهش شىء كثير من الرضا. فقال الرجل:

— إن هذه الشركة هى التى تولت إخراج الكثير من روايات «اميل زولا» وناشر أعمـال «زولا» هى دار «شارپانتييه» لأصحابهـا «فاسكيل وشركاه» وهـــذه الدار قد نشرت قصة من قصصك هى التى دلتنا على عنوانك عندما جاء ذكر الا حتياج إلى كاتب مصرى لوضع الحوار الريفى.

هنا بطل العجب. وذكرت فعلا أنى فى أوائل ذلك العام

جاءنى بنفس الطريقة فيما يظهر ، خطابان لشركتين فرنسيتين للسينما يطلبان منحهما حق اقتباس هذه القصة . وكان وجه عجبي وقتئذ طريقة علمهما بعنوانى .

ـ كل هذا جميل ، ولكنه مع الأسف لا يغير من الموقف شيئا ...

قلت ذلك للرجل . فأطال فى وجهى النظر كأنما دار بخلده أنى اتمنع لشىء فى النفس . ثم نهض وهو يرجو منى أن افكر مرة أخرى فى الامر وانصرف على أن يعود .

فلما عاد فى اليوم التالى وجدت معه رجلا آخر حسن الهندام قدمه إلىّ قائلا انه المتولى الأعمال المالية والادارية الخاصة بهذا الفلم لحساب الشركة . ثم اخرجا من المحفظة التى يحملانها خطابات وأوراق وقال لى الرجل الظريف :

ـ نسيت أن اذكر لك أن الشركة فى باريس قد تعاقدت فعلا مع الكاتب الفرنسى « ..... » على وضع الصيغة الفرنسيه لحوارك . ذلك أن حوارك بالطبع

سيبقى على أصله العربى فى نسخة الفلم العربية إذا صنعت نسخة عربية . أما النسخة الفرنسية فان « ... » يضع صيغتها النهائية بعد أن نرسل له الترجمة الاولية وها هى ذى صورة العقد الموقع عليه منه !

وقدم إلى الورقة فوقع نظرى على رقم المبلغ الذى تقاضاه هذا الكاتب على هذا العمل فوجدته ثلاثين ألف فرنك . ثم شروط اخرى استلفت نظرى من بينها هـذا الشرط . أن يعلن عن اسمه عـلى اللوحة الفضية بحروف فى حجم حروف اسم المخرج . فابتسمت لامر هذا العالم الجديد علىّ ، العجيب بأفكاره ونزعاته ورغباته ! ولم يمهلنى الرجل . فتناول من زميله ورقة أخرى قدمها إلى قائلا :

ـ وهذ هو العقد الذى كنا نرجو أن يتم عليه توقيعك .

فنظرت فى الورقة فإذا هو عقد متعدد البنود مضروب عـلى الآلة الكاتبة باللغة الفرنسية . فى أعلاه قد طبع اسم الشركة وفى أسفله توقيع مندوبها المخول له سلطة التعـاقد . ونظرت إلى

المبلغ المرقوم . فاذا هو يزيد زيادة ملحوظة عما قرر للكاتب الفرنسى الذى لن يصنع شيئا كثيرا وقد روعى العدل فى حجم حروف الاسم بينى وبينه مما جعلنى ابتسم مرة أخرى ، ابتسامة يخالطها شيء من العجب والرضا . على أن الذى دعانى الى التفكير قليلا هو البند الأخير . وفيه تعجل الشركة بقسط وافر من المبلغ يدفع عند توقيع العقد . هنـــا فقط بدأت أنظر إلى الأمر كله بعين الجد محدثا نفسى : « ليس بينى وبين أن أقبض مائتين من الجنيهات الا أن أضع امضائى ها هنا ؟! »

وعندئذ شعرت بسلطان المال . وادركت ان المال قدير أحيانا على تقرير مصير الأشيـــاء ... حتى فى مسائل الأدب والفكر والفن . نعم ولم لا . لو لم تلوح احدى الموسيقى فى لندن لبيتهوفن بمبلغ خمسين جنيها لما وضع السانفونيه التاسعة ! إن لم يكن الفنان محتاجا إلى المال ليعيش فهو محتاج إليه احيانا لينتج . فالفنان أحيانا كالغانية يجب أن يؤخذ بوسائل الأغراء ! إن المرأة إذا لم تحب من قلبها فلابد من اغرائها ببريق الذهب .

والفنان إذا لم يتفجر ينبوع نفسه لغير شيء ، فلابد من طرقه بفأس من ذهب ؟ انها طبيعة غريبة لا علاقة لها بالطمع ولا بالجشع ولا بالرغبة فى الترف . إنما هى أحيانا شيء يدخل فى نطاق سر النفس الآدمية ، إن قلب الفنان وقلب المرأة سيان كلاهما كنز مسحور ان لم يفتح من تلقاء نفسه لأول عابر فلابد من أن يحرق أمامه كثير من البخور .

هذا وحده ما جعلنى احتفظ فى يدى بالعقد طويلا واشعر فى نفسى أنى لن أدعه حتى أوقع عليه . دون ان يخطر على بالى وقتئذ ذلك العمل الذى طلب إلى أداؤه ، ودون أن أفكر فى قدرتى على اتمامه فى ذلك الزمن المحدد . ولم أكن مع ذلك فى حاجة إلى ذلك المال . ولم يكن قد مضت بعد عشرة أيام على قبض مبلغ آخر فى موقف مثل هذا الموقف : فقد كان تاجر الكتب المعروف الحاج (. . .) يريد شراء كتب لى . وكانت الممارسة فى هذا الشأن دائرة منذ شهر بينه وبين المتولى شئون هذه الكتب ، نعم ، فطبيعتى الكسلى قد صرفتنى حتى عن

الاكتراث لهذه الشؤون ... فانتهى الحال بى أن نصبت لنفسى شبه « قيّم » يقوم عنى بمسائل الطبع والنشر والتحصيل والبيع والشراء ، وكل تلك التفاصيل التى حاولت عبثا أن ألم بها بعض الألمام . وقد عرف منى « ولى أمورى » الصدوف عن هذه الأمور ، فلم يعرض على حسابا قط ولم أطلبه بحساب فحسبه ان يقدم إلى المبلغ الذى أريده ، وقتما أريد ولا شأن لى بالباقى فهو يعرف بعدئذ كيف يدير الأشياء مع تجار الكتب والورق إلى أن كان ذلك اليوم إذ تخطاه الحاج وجاءنى مباشرة فما كاد يقع عليه نظرى حتى صحت به :

ـ الكلام والحساب مع محمد افندى ...

فوقف بجسمه الضخم ، ملتفا فى ثيابه الوطنية الطريفة طارحا على منكبيه عباءته السوداء الثقيلة ، ورمقنى بعينيه الحمراوين اللتين لم أرهما قط يوما فى صحة وعافية ، وقال لى فى لهجته الشعبية الظريفة :

ـ سبحان الله ؟ حد ياناس فتح سيرة كلام ولا حساب ؟

صلى على النبي يا أستاذ . واطلب لنا فنجان قهوة سادة !

فطلبت القهوة . وجلس الحاج يتحدث فى مواضيع لطيفة خفيفة ، لا صلة لها بما جاء له من عمل . والحاج محدث ظريف بارع ، لا يمله السامع . وإن كانت شهرته الغالية أنه حاد الذكاء شديد الدهاء . وهو يفخر أحيانا بأنه رجل عصامى ، استطاع بعمله وحده أن يجمع ثروة لا تقل عن الخمسين ألف جنيه وأن يسيطر بحسن تدبيره على تجارة الكتب العربية فى العالم العربى كله فهو يتحدث عن عملائه فى السند والهند وسيلان وساحل الذهب والمغرب الأقصى والشرق الأدنى حديث العارف الخبير . وهو لا يجهل أن له الفضل فى إيصال ثمرات قرائحنا إلى ادمغة الناس فى تلك البقاع ، وادخال أدباء مصر وكتابها بلادا ما كانوا يظنون أنهم داخلوها .

إنه نابليون الكتب ، يفتتح الأراضى النائية ويتقدم بجيوش صناديقه الضخمة وفى أثره الأدباء والعلماء حاملين ألوية الفكر الظافر .

لبث يحدثنى عن أخبار حجه الأخير وما رآه فى الحجاز . والحـــاج يحج كل عام ، ليسأل الله البركات ويسأل العملاء سداد الكمبيالات ... فهو يعمـــل لآخرته كأنه يموت غدا ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ومضى فى الحديث حتى أيقن أنى قد غرقت فى الأصغاء وشاهد على وجهى الرضا والابتسام ، وأدرك انى قد نسيت كل شىء إلا ذلك الحديث الممتع . عند ذاك دس يده فى صدره وانتزع كيسا كبيرا . جعـــل يخرج منه أوراقا مالية من فئة العشرة الجنيهات طفق يعدها بصوت مرتفع :

ـــ عشرة ، عشرين ، ثلاثين ، أربعين ، خمسين ...

فأدركت مراده وصحت به فى حدة وعنف :

ـــ بتعمل إيه يا حاج ! قلت ـــ لك الـــكلام مع محمد افنـــدى ...

فلم يلتفت إلىّ ومضى يعد النقود وهو يقول :

ـــ إن الله مع الصابرين يا أستاذ ! ستين ، سبعين ، ثمانين ،

تسعين ، مايه . . .

فخشيت سوء العاقبة فصحت صيحة مدوية :

— أرجو يا حاج ! انت عارف أنا أكره الحساب . فتركنى أصيح كما شئت ومضى فى اخراج الأوراق المالية وهو يعد :

— مايه وعشرين ، مايه وثلاثين ، مايه واربعين . . . وخمسين ، ستين ، ثمانين ، تسعين ، مائتين . . .

فلم أدر ماذا أفعل ؛ وجعلت أتظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاحتمال لما يصنع ، ولكن عيناً من عينى كانت تغافلنى وتلمح النقود على الرغم منى ، وأذنا من آذانى ما كان يفتها صدى صوته المرتفع بالعد . وكان كلما مضى فى العد بعد أن جاوز الرقم المائتين أحسست أن مقاومتى تخور ، وأن ثائرى يهدأ ، وأن أعصابى تلين حتى سمعت صوته يقول « مائتين وسبعين جنيه خد عدهم مرة ثانية » . ولمحت الكيس فى يده كاد يفرغ الا من بضع ورقات يريد أن يضن بها ، ويمنع أصابعه من أن تبرزها . . .

فما تمالكت نفسى وأقبلت عليه بكل قواى ... واحتفظت يده مع الكيس ، بأصابعه المدلاة فيه ، وصحت :

ـ قسما بالله العظيم ، ماتخرج من هنا ومعك صنف الفلوس !

وأفرغت ما كان فى الكيس بين يدى . فوجدت فيه ثلاث ورقات أخريات وعدد من النقود الفضية فصاح بى :

ـ طيب بس يا أستاذ ... اترك لى أجرة العربيـــة الحنطور ...

ـ أجرة العربية الحنطور ثلاثة صاغ !

ودفعتها إليه . وهو يقول « لا حول ولا قوة إلا بالله » وأخذ منى رسالة إلى « محمد افندى » يتسلم بها ما يطلبه من الكتب . وذهب ، ثم مضى يومان ، وإذا « محمد افندى » يجيئنى ساخطا ثائرا صائحا :

ـ هو الحاج عملها ؟

ـ عمل ايه ؟

ـ كتب ثمنها أكثر من خمسمائة جنيه يشتريهـــا تقريبا

بنصف القيمة !

ثم جعل يقص على خبر مفاوضاتهما السابقة . ويقول إنه رفض أن يعطيه ما أخذ باربعمائة جنيه وطفق « القيّم » يأسف لأصغائى إلى الحاج . ولأهمالى الرجوع إلى رأيه قبل إبرام مثل هذا العقد وحركته الغيرة على عمله وهو رجل أمين ، وهزته الشفقة بى وهو يعلم انى أقضى فى أمورى بعواطفى وهى تناقض المصلحة فجعل يردد كالمجنون :

— مستحيل ! نصف القيمة شىء مستحيل !

فطفقت أنظر إليه وابتسم . وأردت أن أهون عليه الأمر فقلت :

— صحيح مستحيل ! لأجل تعرف انى أقدر أحيانا أصنع المستحيل !

فقال محتدا :

— حضرتك ولا مؤاخذة تعرف تكتب الكتب فقط . اعمل معروف يا أستاذ ، خليك للتأليف لا غير ...

فضحكت وهدأت من روعة . وأبديت له عذرى وحجتى ، ووصفت له الضعف الذى دهانى أمام براعة الحاج . فهو قد خدر أعصابى بتلك الأوراق التى جعل يخرجها من الكيس على مهل أمام عينى كما يخرج « الحاوى » الماهر ، من كيسه تلك التعاويذ التى يحذر بها أعصاب الثعابين . . .

٤

أمضيت العقد وقضى الأمر . وجعل ذلك الرجل الأشقر الأنيق يختلف إلى كثيراً . ولم أعرف على وجه التحقيق وظيفته فى ذلك العمل . فهو كما فهمت مخرج ذلك الشريط أو المنوط به إدارة أعماله الفنية . وعلى هذا الاعتبار ، رأى أن أخصص له وقتا نجتمع فيه فحددت له مابين الرابعة والسادسة من عصر كل يوم . وهو الوقت الذى يذهب عادة فى الاستلقاء على المقعد الكبير . فكان يأتى فى هذا الموعد ، ونتجاذب حديثا بسيطا هينا فى شئون القرية المصرية . أساهم فيه بنصيبى من الكلام وأنا بين النوم واليقظة . فقد كنت قد دعوته إلى الاجتماع فى شرفة حجرتى حيث النسيم ينشط الفكر بدلا من بهو الفندق وقاعات استقباله حيث يشتد الحر فى تلك الساعة ويقل الهواء . وبهذا كنت ألزم مقعدى ولا أغير عادتى . على أن فتورى كلما بدأنا الكلام فى مسألة الحوار لم يتغير . وجهلى

المطبق بتفاصيل القصة التى سردت على مراراً لم يبرح وكسلى عن مطالعة « السيناريو » حتى النهاية لم أجد له دواء ومضى أسبوع على هذه الزيارات والأحاديث . ولم تصنع شيئاً . وخجلت آخر الأمر من موقفى ومن ظرف المخرج وصبره فقلت له ذات مرة ، وأنا أغالب اغفاءة دهمتنى فى يوم قيظ ، وهو أمامى يحلل لى شخصية بطل من أبطال قصته :

— أرجو المعذرة . أنك لا شك قد يئست منى . كما كدت أيأس من نفسى !

فأجاب فى ابتسامة :

— أنا أيأس ؟ ! المخرج الذى ييأس لا ينبغى أن يسمى مخرجا . ما صناعة السينما إلا صبر طويل . كلا لا تخش شيئاً . أنى لن أيأس منك كل ما فى الأمر أنى محتـــاج إلى شىء من الوقت . إن المخرج يجب أن يبدأ دائماً بنسج الجو الذى يغمر فيه ممثليه وأعوانه . وينبغى أن يسير بهـــم خطوة إلى عالم القصة وزمانها ومكانها ... ثم عليه بعد ذلك أن يخضعهم

خضوعاً خفيا إلى إرادته ، كما يحـــدث فى التنويم المغناطيسى .

فقلت له وأنا أتثاءب على الرغم منى .

ـــ حقيقة ، ها أنت ذا منذ أسبوع تأتى كل عصر لتنومنى !

فالتفت إلى فى الحال وقال باسماً :

ـــ تقصد أى نوع من النوم ؟ !

ـــ معذرة . إن قصدى بالطبع ...

ـــ لا بأس ... لا بأس ...

قالها ضاحكا ثم مضى يقول :

ـــ قد ننشط أكثر من ذلك لو تركنا هـــذه الحجرة ، ووضعنا أنفسنا فى المكان الذى ينبغى أن تدور فيه القصة .

ثم أخبرنى أنهم قد تخيروا بالفعل قرية صغيره فى طريق البدرشين على بعد نحو نصف ساعة بالسيارة من القاهرة . وأنهم استأجروا فيها منزلا جميلا من طابقين يملكه أحد الأعيان ، وهو الآن خال . وقد أرسلوا من أعدّ إعدادا مقبولا حتى يصلح مركزاً عاماً لأعمال الشريط فى الريف .

وقال إنه لابد له من أن يقيم هو نفسه أكثر أيام الاسبوع في ذلك المكان حتى يغمر نفسه في جو الريف، وينتقى مواقع القصة، وينتخب الاشخاص الصالحين من بين الفلاحات والفلاحين. ويجرى أبحاثه التمهيدية الخاصة بزوايا التصوير. ثم ختم كلامه قائلا:

— لو رافقتنا ولبثت معنا في هذه القرية ...

فما تمالكت نفسي. وقلت من فوري:

— هذا محال. لدى عملي في القاهر ولا أستطيع التخلف يوما.

فأطرق الرجل أسفاً. ثم أراد أن يجد لذلك حلا فعرض أن يجعل سيارة تأتي وتذهب بي إلى القاهرة كل يوم. على أن أمضي معهم هناك أكثر الوقت. وجعل يؤكد لي أن أسباب راحتي في ذلك المنزل الريفي موفورة. وانهم خصصوا إلى أجمل الحجرات وذكر لي ان مصور «الكاميرا» وزوجته مقيمان في ذلك المنزل منذ استئجاره وأنهما سعيدان كل السعادة في ذلك المكان

ومضى فى ذلك القول . وأنا لا أريد أن أسمع ما يقول . فان ذكر الريف والمبيت فى الريف يزعجنى منذ أن قضيت فيه أعواما لا تنسى من حياتى . ان الصور التى أحملها لحياة الريف مؤلمة أشد الألم . ولئن كنت قد أحببت كثيرا روح الريف البريئة ونفس الفلاح السمحة الكريمة . فإنى كرهت وأكره مظاهر الريف القبيحة وحياة الفلاحين القذرة . فقلت للرجل .

— لا . لا لزوم لوجودى معكم . يكفينى نسخة القصة أمامى . وأنا أضع حوارها هاهنا على مكتبى . ولكن الرجل مضى فى إطراقه . وأدركت من موقفى أن شيئا آخر غير الحوار يعنيه من أمرى وأمر وجودى بقربه دائما : هى تلك المعلومات والتفسيرات لأرض وناس يجهلهم ، والمشورة الخبيرة التى يظن أنى أستطيع أن أمده بها فى كل مرحلة من مراحل هذا العمل . ولقد انتهى به الأمر أن أشار إلى ذلك إشارة صريحة ، وحزن لموقفى . وطلب إلى أن اعينه فى عمله بقدر ما أستطيع . لا للاتفاق الذى يربطنى بهم ، بل للفن ، وللصداقة التى بدأ

يحسها نحوى . فأثر قوله فى نفسى . وطفقت أفكر فيما يمكن عمله فعرضت عليه أن أمضى ليلة الجمعة وصباح الجمعة من كل اسبوع معهم فى ذلك الريف . وأن يراسلنى أو يخاطبنى بالتليفون عن كل ما يعن له خلال الأسبوع فقبل . وسألته عن الرحيل .

فقال :

إذا شئت فمن الخميس المقبل .

أى فى عصر ذلك اليوم الذى قابلت فيه الجحش . وهكذا خطر لى أن أصحب معى ذلك اليوم إلى الريف ذلك الرفيق الصغير ...

٥

تركت الجحش مع الغادة الشقراء مطمئنا واثقا انه قد وضع بين يدين رحيمتين رقيقتين ، اتمنى لو أضع أنا نفسى بينهمـــا . على أنى غاليت بعض الشىء ودفعنى بغضى لتحمل التبعات ، فوطنت العزم على الهروب من وجه الفتاة حتى موعد الرحيل فى عصر اليوم ، خشية أن ترد على وديعتى قبل ذلك . فاضطر إلى حمل همها ، وأنا أضيق بحمل هموم نفسى . فتركت الفندق . ورأيت أن أتغدى فى مطعم بالمدينة ولا أعود إلا فى الوقت المناسب .

ووافت الساعة الثالثة فـآويت الى حجرتى ، وما كدت استقر فى مقعدى حتى دق التليفون يعلن قدوم المخرج ، فدعوته إلى الصعود ، فصعد ، وإذا هو فى ملابس الرحلات : ذلك البنطلون الـكاكى القصير والقميص القصير الأكمام ، والقبعة الـكبيرة المصنوعة من الفل . وابتدرنى قائلا :

— كل شيء مهيأ للرحيل . والسيارة على باب الفندق فى الانتظار .

فنهضت ونظرت إلى هيئتى فى المرآة وقلت :

— منظرى بينكم هكذا كالنغمة « النشاز » . . . !

— اصنع مثلى !

— أين لى الآن بهذا الزى

— تشتريه فى الطريق .

— هلم !

وحملت فى الحال حقيبتى الصغيرة وكنت قد عددتها وجهزتها فى الصباح بما احتاجه لقضاء ليلة فى الخارج وقرعت الجرس اطلب خادم الطابق للنزول بها . فما أن حضر حتى ذكر لى أن الآنسة الشقراء قد قلبت الفندق رأساً على عقب بحثاً عنى . وأنها تسأل عن حضورى فى كل لحظة . . . فأدركت السبب . والتفت من فورى إلى المخرج قائلا :

— لو سمحت أن أصطحب معى صديقاً عزيزاً . . .

فأجاب المخرج وكان قد سمع الخادم يذكر كلمة « المدمزيل »

— بالطبع . ان حجرتك فى منزل الريف تتسع إذا شئت لسريرين ! . . .

وابتسم ابتسامة ذات مغزى . ففطنت لمراده . ووجمت قليلا . ثم بادرت أقول :

— يحسن بى فيما أظن أن اقدم إليك هذا الصديق . ثم استأذنته لحظة فى الذهاب إلى الحجرة المجاورة . فجلس فى المقعد الكبير ينتظر عودتى ... واتجهت مع الخادم إلى حيث الغادة . فطرقنا بابها فى رفق . ففتحت . وما أن رأتنى حتى صاحت بى باسمة :

— أخيرا ظهرت ! لقد كدت أيأس من ذلك الرجل العجيب الذى ترك لى جحشه واختفى !

— معذرة ياسيدتى . . . إنما أردت ان امتع جحشى بعطفك أطول وقت ممكن !

فابتسمت وقالت فى قلق وحزن :

ـ لم استطع مع الأسف أن اصنع له شيئا . وقد سألت عنك لأخبرك انه رفض كل الرفض ان يشرب اللبن بهذه الطريقة أيضا . لابد فيما أرى من أن يرضع من ثدى حمارة ولدت حديثا . إنى ارثى لهذا المسكين ! انه سيموت حتما من الجوع إن لم يتدارك الأمر سريعا .

فقلت من فورى :

ـ سأدبر له ذلك فى الريف . ومن حسن الحظ انا سنرحل الساعة ...

قلت ذلك وأنا أبحث بعينى عن الجحش ، فأبصرته كما تركته أمام مرآتها الكبيرة يتأمل نفسه دائما ... فى صمت تأملا عميقا ... فقلت لها :

ـ أتأذنين لى فى الانصراف بهذا « الفيلسوف » !

فقالت باسمة :

ـ حقاً ... يا له من فيلسوف !

فقلت وأنا أتقدم اليه :

اشكرك يا سيدتى بالنيابة عنه . وبالاصالة عن نفسى على حسن ضيافتك . وأخشى ان يكون قد اثقل عليك كما يثقل الفلاسفة اكثر الأحيان على الغيد الحسان .

فقالت وهى تسلمنى زمامه :

— على النقيض لقد قضيت فى صحبته وقتا لطيفا . . . « جود باى » !

وأشارت بيدها إشارة وداع ظريفة للحيوان الصغير وتركتها . ودخلت به على المخرج قائلا :

— أقدم إليك صديقى . . .

فنهض الرجل فى الحال والتفت فوجد الجحش . فدهش ثم ابتسم ، ثم ضحك مسرورا معجبا . . . وأقبل عليه يمسح رأسه الصغير بكفيه . ويقول :

— مرحبا به من رفيق ! لا شك أنه مصدر وحيك

— أرجو ذلك .

— أطوارك تدهشنى . ما اسمه ؟

ـ لم اطلق عليه بعد اسما من الاسماء . لكنى أحب لو دعوته « الفيلسوف » فصاح الرجل :

ـ أصبت ما من اسم يصلح له حقاً غير هذا . هلم أيها « الفيلسوف » !

وأراد الخادم أن ينزل به من سلم الخدم . فأبى المخرج إلا أن ينزل معنا . وقاده بنفسه وتقدمنا به إلى المصعد وهبطنا به إلى بهو الفندق أمام الجميع . واخترقنا المكان إلى الباب الدائر وأعين الحاضرين ترمقنا فى عجب شديد . ولمحنا مسيو « ... » المدير فلم يصدق عينيه : جحش يسير على رخام بهو الفندق ... هذا محال ... ولم يدر ماذا يصنع . فعاجلته بابتسامة وعاجله صاحبى بابتسامة وانحناءة ، والتفت إليه الحاضرون من سادة وسيدات فى ابتسام وضحك وسرور .

فما تمالك المدير أن ابتسم مثل الجميع . واسرعنا نحن إلى الخروج . فوجدنا سيارة كبيرة فيها سيدة فى مقتبل العمر رشيقة مليحة ، لكنها تضع على عينيها منظاراً ويدل مظهرها

على النشاط وحب المخاطرة والرغبة فى الانصراف إلى العمل. وهى ترتدى ثياب الرحلات. ثم رأيت فى مكان القيادة من السيارة شابا مفتول العضلات، قوى الجسم، فى ملابس الرحلات أيضا ... قدمهما إلى المخرج قائلا انهما مساعداه ... وقد استقبلانا بالترحاب وخصا بعنايتهما «الفيلسوف»، حتى كدنا نحن نهمل اهمالا مهينا وأفسحت «المساعدة» مكانا أمامها للرفيق الصغير، فوقف فى ذلك المكان من السيارة واطل برأسه خارجا. وانخذ كل منا مقعده وانطلقنا حتى بلغنا شارع فؤاد. فوقفنا امام متجر كبير ابتاع منه ملابس كملابسهم. ونزلت فاشتريت ماأردت وعدت فوجدت الزحام شديدا حول السيارة، والمارة متكدسين فى حلقة كبيرة ينظرون إلى الجحش وهو يطل عليهم برأسه. وجاء عسكرى المرور فشتت شمل الناس، وانقذنا منهم وصاح فيهم:

بالله ياجدعان انفضوا! جرى إيه؟ عمركم مالقيتم

حمير راكبة أو تمبيل ؟ !

فالتفتنا اليه من قلب السيارة وقلنا :

ـــ متشكرين !

وانطلقنا إلى الجـــيزة ثم إلى الطريق الزراعى المتجه إلى البدرشين ...

٦

لم يكن سيرنا متصلا . فلقد كنا نقف فى الطريق لحظات، كلما استرعى التفات المخرج منظر طريف . وقد راقته كثيرا شجرة جميز ضخمة يجرى فى أصلها جدول يسبح فيه بط وأوز ، فأخرج آلة تصويره وسجل هذه الصورة قائلا ان هذا المكان خير إطار يوضع فيه موقف من مواقف القصة حيث يلتقى البطلان أمينة الفلاحة ومهدى الفلاح . فقلت له إن هذا المكان بعيد عن القرية التى ينبغى أن تقع فيها الحوادث . فقال :

— وماذا يهم . انا نلتقط مناظرنا حيث نشاء ثم نلصقها فيما بعد حيث نشاء من الشريط .

— ولكن هذا مخالف للحقيقة .

— هذا بالطبع مخالف للحقيقة الجغرافية إذا شئت ونحن فيما أظن فنانون لا مهندسو مساحة وكل مايعنينا هى الحقيقة الفنية .

صدق هذا الرجل . إن الحقيقة الفنية هى وحدها التى يجب أن تعنى الفنان . وهذه « الحقيقة » كل قوامها تخير الصور وتنسيقها تنسيقاً يؤدى إلى ظهور المخلوق الفنى الكامل ، ذى الطابع الفريد والشخصية المستقلة والروح الجديد . ولا يهم بعد ذلك كيف جمعت العناصر . وخطرت لبالى عند ذاك كلمة موليير إذ اتهموه بجمع مواد اكثر قصصه ممن سبقوه أو عاصروه من قصاصين . لقد أقر بذلك . لكنه قال : « إنى آخذ ما ينفعنى حيثما وجدته » . وذكرت ذلك لصاحبى فقال :

— إن هذه الكلمة بدون ريب شعار كل مخرج .

— وكل فنان على الاطلاق . من روائى وموسيقى ومصور ومثال وسينمائى الخ ... لأن فيها يستقر معنى « الحقيقة الفنية »

ومضينا نتحدث هكذا ، حتى أشرفنا على القرية التى إليها نقصد . وهى تقع على يسار هذه الطريق الزراعية التى نسلكها . وقد شاهدناها عن بعد يكاد يخفيها النخيل وعرجت السيارة ثم هبطت ممرا ضيقا من الأرض يوصل إلى القرية . وسارت

على مهل بين أكوام السماد والقذارة . وطلعت علينا الكلاب نابحة كما طلعت أسراب الصبية من صغار الفلاحين فى أطمارهم وذبابهم الذى يأكل أهداب عيونهم . ووقفت السيارة فى مكان لم تستطع بعده تقدما . فقد ضاقت المسالك . ولم تتسع إلا للقدم العابرة فهى حارات ملتوية بل دهاليز بين مساكن كأنها أوكار الوحوش . ونزل الجميع . وألفينا فى استقبالنا مصور الكاميرا وزوجته مع بعض الموكلين بأمر المنزل من عمال الشركة والخدم . فحملوا الأمتعة الخفيفة التى معنا . وأنزل الجحش بعناية الآنسة المساعدة واشرافها .

فبادرت أسأل عن وجود حمارة ولدت حديثاً فى القرية .

فقال أحد الصبيان المجتمعين :

ـ عند أبو يا سعداوى حمارة والدة !

ـ فين هو سعداوى !

ـ جارنا . . .

فنظرت ملياً إلى هذا الصبى الشاحب الهزيل وذكرت

ما قاله أحد أطبائنا الباحثين : ما من صبي فى ريف مصر لم تنهش جسمه الأنكلستوما والبلهارسيا . وهذه العلل بالذات لها فعل يصيب العقل أيضاً . فيهبط مستوى الإدراك . وتنطفى شعلة الذكاء . . .

ولم يعر خدمنا كلام الصبية التفاتا . فقد رأوا أن يحملوا الجحش إلى دار العمدة وهو يصرف الأمر وقد كانت جهة الأدارة قد أوصت العمدة بالضيوف الأجانب خيراً ، ولقد علمت أن مأمور المركز ومعاونه قد علما أننا حاضرون اليوم فأخطر العمدة بعزمهما على المجيء للترحيب بنا . ولكن المخرج الفطن أدرك مرادهما فقال لى باسماً :

— انهما لا شك يحسبان أننا سندير أعمال الشريط ونلتقط تمثيل الممثلين . فأرادا ألا تفوتهما فرصة المشاهدة ! وتركنا السيارة فى حفظ بعض الخفراء النظاميين وسرنا فى تلك الأزقة والدهاليز ... بين تلك الدور ، يتبعنا الصبية المرضى والكلاب الجربى ويقف لمرورنا الرجال المنهوكون الجالسون يجرعون

الشاى الأسود على المصاطب . وتطل من خلف الأبواب رؤوس النساء المعفرة بدخان الأفران وهن يخفين أسفل وجوههن بطرحهن السوداء . وأشرفت علينا فتيات الريف وحسانه من فوق الأسطح وقد تلطخت أكفهن بروث البهائم وانشغلن بنا قليلا عن صف « الجله » . إنه الريف القذر الذى أعرفه دائماً . ولا فائدة ترجى منه ولا شىء اليوم غير الأسف والحسرة والمرارة . وندمت على المجىء . وغمرتنى الكآبة . والتفت إلى زملائى فوجدت البشر والسرور والإعجاب يطفح من وجوههم والمخرج يهز رأسه ويقول لمساعدته :

ـ انظرى . . جميل . . بديع . . . كل هذا جميل حقاً وبديع !

فجعلت أحملق فى عيونهم المفتوحة الدهشة ، ثم إلى مرامى أبصارهم ومواضع هذا الجمال والإعجاب والابداع الذى يقولون عنه . فما وجدت شيئاً واحدا يجوز أن يطلق عليه نعت من هذه النعوت . وابصر المخرج فتاة قذرة تخرج من بين الطين وحطب الأذرة فوق سطح إحدى الدور وقد

خرجت معها قطة ضالة نافرة . وكلاهما قد أصاب وجهه الطين والقذر . وكلاهما قد بدت عليه مظاهر المخلوقات الدنيا . فسدد الرجل آلة تصويره إلى هذا المنظر راضيا مسرورا . فقلت له حانقا :

— أهذا شيء جميل .

فصاح :

— بلا شك ...

— هذه المخلوقات المسكينة القذرة ؟

— إنها أجمل « فنيا » من مخلوقات ترتدى ثياب السهرة فى حفلة راقصة بقصر بطرسبرج الامبراطورى !

— « الجمال الفنى » !

— بلاشك ...

— الحقيقة « الفنية » لا علاقة لها كذلك بنظافة ولا قذارة ولا فضيلة ولا رذيلة ، ولا تأخر ولا حضارة !

— بلاشك .

لم أرد أن أمضى معه فى حديث من هذا الطراز . فلزمت الصمت . واكتفيت بأن أراقبه وألاحظ كيف ينظر إلى الأشياء . ولقد عجبت حقا أول الأمر لأسلوب تفكيره . إنه لا يتصور الاشياء بعقله . ولا يفكر بذهنه . إنما يتصور ويفكر بعينه . حاسة البصر عند هذا المخرج هى كل شىء على وجه التقريب . لقد مررنا « بجرن » قامت فيه أكوام من القمح ووقف فيه فلاحان كل منهما يحمل « مدرة » يدسها فى كوم القمح ويرفعها فى الهواء ليفصل الحب عن « التبن » فيتناثر التبن فى الفضاء تحت وهج الشمس فيحدث صورة ، التقطتها عين الفنان السينمائى فصاح معجبا :

مطر من الذهب !

فنظرت كما نظر فإذا أنا أرى حقيقة أن « المدرة » فى يد الفلاح تثير فى الفضاء شيئا كأنه الدنانير المتساقطة . وسجل صاحبى هذا المنظر بآلة التصوير وهو يقول لى باسما :

— إذا أردت أنت ان تعبر بقلمك عن هذا المعنى فإنه

تكفيك « عبارة لغوية » قوامها الكلمات . أما أنا فأحتاج إلى « عبارة سينمائية » قوامها المرئيات ! وهذا هو الفرق بيني وبينك !

وأعجبني قوله . فسكت . وجعلت أفكر لنفسي وأقول : لو أننا نحن الكتاب نستخدم أبصارنا بل كل حاسة من حواسنا هذا الاستخدام فأي صور وأي حقائق يمكن أن نبرزها للناس . ولكن الكتابة في نظر أكثر الكتاب عبارات لغوية جمعت في خزانة الذاكرة ليستخرج منها وقت اللزوم ما يؤدي إلى مجرد الإبانة عن القصد . ينبغي أن يكون الكاتب موهوبا حقيقة ، ليتطلب من الكتابة شيئا أكثر من ذلك . من هذه الناحية افادتني صحبة المخرج . وشعرت لأول مرة بالرضا عن هذه الصحبة .

وبلغنا أخيراً المنزل الذي أعد لنا . فاذا هو قائم وسط بيوت الفلاحين ، كما يقوم العمدة الموسر بعض اليسر بين رجاله العراة ، دون أن يتميز عنهم كل التميز من حيث الذوق والطبيعة والأدراك . فهذا المنزل رحب ضخم من طابقين وهو مبني

بالطوب الأحمر ومطلى بطلاء فى لون الفستق . ونوافذه واسعة مشبكة بالحديد ، وجدرانه سميكة وسقوفه عالية وحيطان حجراته منقوشة بالزيت نقشاينم عن السعة والترف ولكنه مع كل هذا غاية فى سقم الذوق وسوء التفصيل والرسم والتخطيط . فلا حديقة صغيرة تحيط به . ولا مدخل رحب يستقبل الداخلين من بابه العريض . ولا حمام مجهز بالأدوات الضرورية . إنما يمر الداخل فى شبه دهليز مظلم ضيق عن يمينه ويساره تلك الحجرات الواسعة العالية السقوف التى أنفق فى نقوشها الأموال . إنه منزل يشعر زائره بأن صاحبه غنى الجيب فقير الروح . ولقد انقبض صدرى منه . وضاقت نفسى به . . . وقادونى إلى حجرتى وهى خير الحجرات ، وقد وضعوا فيها أثاثا خفيفا نظيفا مما يستعمل فى الرحلات . غير أنى وجدت نوافذها كأغلب نوافذ المنزل تشرف على أكوام سماد تتصاعد منها الروائح الكريهة . وانفردت فى حجرتى أخرج من الحقيبة الصغيرة بعض ما أحتاج إليه . وكانت الشمس قد غربت . وبدأ

الظلام يضيف إلى كآبة البيت كآبة جديدة . وجعل الخدم يوقدون المصابيح ويعدون المائدة للعشاء . ولكن المخرج وأعوانه ما زالوا يعملون ، فلقد سمعت صوت الضرب على الآلة الكاتبة يأتى من إحدى الحجرات البعيدة . لكنهم لم يريدوا إزعاجى إلى أن حان وقت العشاء . فدعونى إلى مائدة نصبت فوق سطح المنزل . فقد كان الحر داخل البيت شديداً . والبعوض قد ظهر وتكاثر . فجلسنا إلى مائدة عليها بعض تلك الزهور البرية التى تنبت فى الغيطان ، جمعتها ونسقتها زوجة المصور ، مستعينة ببنات ريفيات نظفنهن وهيأنهن . وانكشفت لأبصارنا سماء الصيف الصافية . وكان القمر طالعاً فى تمامه . والنسيم يهب بين حين وحين رقيقاً رفيقاً . وجلست فى رأس مائدتنا زوجة المصور صاحبة الفضل فى تنظيم هذا البيت المهجور . وجلست إلى يمينها الآنسة المساعدة وقد خلعت عوينتها فظهرت عيناها الخضراوان جميلتين براقتين فى ذلك الليل كأنهما عينا القطط وقد خلعت ثياب الرحلات وارتدت

ثوبا نسائياً لطيفاً. فأكلنـــا أكلا بسيطاً. لكنه لذيذهني.... وقضينا لحظات ممتعة ، دار فيهـا الحديث حول « الفيلسوف » فقد قالت زوجة المصور .

ـ أرجو أن يكون هو أيضاً قد تناول عشاءه مريئاً !

فقلت :

ـ لا شك عندى فى ذلك . فالعمدة لن يعجز عن إيجاد حمارة والدة تعيره شيئاً من الغذاء المادى والمعنوى ، بقليل من اللبن وقليل من الحنان !

وقال المخرج :

ـ خطرت لى فكرة : هى أن نستغل « الفيلسوف » للدعاية والاعلان .

فقلت باسما :

ـ آه هذا حقا هو الذى كان ينقص « فيلسوفنا » أن يستغله المستغلون ، كما يصنع عادة بالفلاسفة ! لكنى لست أرى مبادءه وآراءه التى يجوز أن تكون محل استغلال ، إنه

فيما أعـــلم فيلسوف صامت ، قد حبس فى صدره إلى الأبد كل ما عنـــده من كلام . .

فقالت الآنسة ضاحـــكة :

ـــ يكفينا منه صورته !

وقال المخـــرج :

ـــ نعم ، صورته الرزينة الوقورة . نسيت أقول لك أن الآنسة (. . .) يقع فى اختصاصها أيضـــاً هذا الباب . فهى التى تعد وسائل الإعلان باللغات المختلفة وتتولى إرسالها إلى مجلات السينما فى العالم . . . ولقد كان صاحبى يعرض علىّ حقيقة عندما كان يختلف إلىّ فى الفندق أعداداً من مجـــلات مصورة خاصة بالسينما تصـــدر فى أوروبا وأمريكا فيها ذكر أعمال الشركة ومشروعاتها . ومن بينها أخبـــار ذلك الفلم الذى يعده واسم المتولين إعداده ومضى يقول :

ـــ نعم أرجو من المدموازيل أن توفق إلى استثمار ذلك . ولنساعدها الآن ولنفكر معها قليلا : ماذا نقول ؟ آه . . فلنقل

مثلا ان هذا الجحش هو الملهم الموحى لمؤلف الحوار .. وانهما لا يفترقان مطلقاً . ثم نلتقط لكما صورة معاً .

فقلت :

— حقاً . ما أجملها دعابة لمؤلف الحوار ! أن يذاع أن وحية لا يهبط عليه إلا من حمار !

فضحكوا جميعاً ، والتفتت إلى زوجة المصور قائلة :

— كلا يا سيدى ، بل سيفهم من ذلك أنك ممن يحبون الحيوانات ؟

— أما هذا فصحيح . نعم . أحبها كثيرا ، وآسف أن طبيعة حياتى المتنقلة الآن لا تسمح لى باقتنائها والعناية بها . فأنا نفسى اليوم فى حاجة إلى من يقتنينى ويعنى بى ، ولهذا أكتفى بمشاهدتها والنظر إليها . إننى لأسر دائماً سروراً عظيما كلما مررت فى الطريق بقرد صغير مع قراد . ولا أنسى ذات صباح رأيت فيه قردا جالسا مع صاحبه بباب مطعم وقد وضع بينهما طبق به فول وزيت ، فجعل الرجل يأكل لقمة

ويطعم قرده لقمة كأنهما أب وابن .

فقالت المرأتان معاً :

— هـــذا بديع .

فقلت ماضياً فى الكلام :

— حقيقة ، ولقـــد بدأ من اهتمامى بالقرود فى شوارع القاهرة أن عرفنى القرّادون . فما يكاد أحدهم يلمحنى سائراً حتى يسرع نحوى صائحاً فى قرده .

« سلم على سيـــدنا البك ! » فيقف القرد على قدميه كأنه إنسان ويرفع يديه إلى رأسه بالتحية . فأنفحه قرشا ، وأوصى صاحبه أن يشترى له فولا . . على أن أحب المناظر إلى عينى منظر القرد الصغير وهو يمتطى العنزة ذات البردعة الحمـــراء والكلب ذا الجلاجل وانتقاله بينهما واثباً من ظهر إلى ظهر ، كأنه السيد المدلل ، الذى لا يجوز له المشى والمطايا حاضرة

فضحك المصور وقال :

— صورة جديرة بالالتقاط !

فقلت له :

— الأجدر منها منظر تلك الأسرة العجيبة وقد صادفتها يوما فى أحد الشوارع ، حطت رحلها بالقرب من صندوق للقمامة ، وقد ظهر عليها الجوع والأعياء وبدأ عليها الشقاء . ونبذها الناس ، ولفظها المجتمع . ولم يعرف لها أحد حقاً من حقوق الحياة . فلجأت إلى قارعة الطريق . ولم يبق فيها سيد ولا مسود ، ولا آمر ولا ناه .

شغل كل بنفسه . فجلس صاحبها القرفصاء يبحث فى القمامة عن قشور البطيخ وفتات الخبز وفضلات الطعام . وتفرق أفراد الأسرة ، كل فرد فى ركن يخرج بيده أو بفمه أو بنابه ، على حسب نوعه فى الحيوان ، ما يملأ جوفه الخاوى . واندست بينهم القطط الضالة والكلاب الهائمة ، تطلب هى الأخرى حقها فى هذه الوليمة المباحة . وطعم الجميع ، وقد ساد بينهم سكون وسلام وإخاء ، أثر فى نفسى ، فتقدمت إلى القراد وألقيت فى كفه قطعة فضية صغيرة ، فما صدق المسكين

عينيه . ووثب فى الحال على قدميه ، وصاح فى أسرته صيحة تبشرهم بالفرج وتدفعهم إلى الأمل والعمل : « إلعبوا يا أولاد ! الليل الليل وأنا كان مالى ! ارقص ياميمون ياصغير لسيدنا البك ، الله مايجعله يلقى يوم سوء ! » ودب النشاط فى الجماعة فماءت العنزة ، ونبح الكلب ، ووثب القرد ورأيت الفرح بالحياة يلمع فى عيون الجميع ، وكأنهم أرادوا أن يضعوا فى ألعابهم هذه المرة كل حرارة قلوبهم المقرة بالجميل ، غير أن عملى ذلك الصباح كان فى الانتظار . ولم يكن الوقت وقت مشاهدة ألعاب القرود والماعز . فأعفيت الأسرة من أداء العمل . فرفضوا . وأبى الرجل أن يدعنى انصرف قبل أن يقوم أعوانه بالواجب . ورأيت منهم الإصرار ، وأدركت أنهم لا يقبلون الصدقة ، فهم ليسوا بمتسولين ، إنما هم يأخذون الاجر على عمل انفقوا فيه جهدا حتى حذقوه . فلم أشأ جرح شعورهم . وقلت للرجل : « طيب العبوا بسرعة ! ... »

فابتسم المخرج والمصور ، وقالت الآنسة المساعدة :

— حقيقة ، إن فى بعض الحيوانات ذكاء يدعو إلى العجب !

فقالت زوجة المصور .

ووفاء . . .

فقلت من فورى :

أما عن الوفاء . فلن أنسى مطلقا وفاء الكلبة « فوكسه » .

فقال الجميع فى عجب :

— فوكسه ؟ !

— نعم . تلك كلبة كانت فى ضيعة لنا . أهمل شأنها الجميع . فتركوها تنام حيث تشاء ، وتأكل ما تصادف فى الجرن من أقذار . فالفلاحون أفقر من أن يفكروا فى أمر حيوان لا ثمن له فى سوق الماشية ويبلغ من اهمالهم هذه الكلبة ان اطلقوا عليها ذلك الإسم الذى لا ينم عن جهد فى الاختيار . فكل كلب عندهم اسمه « فوكس » . فلتكن هذه الكلبة إذن « فوكسه » . ولبثت « فوكسه » على هذه الحال من حقارة الشأن وهوان المنزلة مع أنهـــا حارسة الضيعة التى لا تنام . إلى أن جاء رجل

من بلدة مجاورة يأخذها لتلد صغاراً من كلب له ، فقال له أهل الضيعة أن خذها فلا حاجة لنا بها . فأقبل عليها الرجل حاملا فى إحدى يديه حبلا من الليف وفى الأخرى بعضا من رغيف أداة الترغيب إذا رضيت وأداة الإرغام إذا كرهت . ولكن « فوكسه » انقادت للرجل طائعة مختارة . وعجب الفلاحون لها أول الأمر . ولكن . . لم يمض النهار حتى شهدوها فى مكانها المعتاد من الجرن رابضة . وإذا الرجل يرجع حانقا صاخبا ، لا يدرى كيف غافلته وانفلتت عائدة . وأخذها مرة أخرى فذهبت معه مطواعة مختارة ، وعيون أهل القرية تشيعها فتدير وجهها شطرهم ، ناظرة إليهم نظرات هادئة مطمئنة ، لكن فيها شيئا كالسخرية ! وكأنها تقول لهم : لا تخافوا ، سأعود عما قليل ! ، ولم تمض بالفعل ساعة إلا وهى فى الجرن من جديد . حتى قنط الرجل منها ومن أمر زواجها . وأيقن الجميع أن وفاءها لأصحابها أجل عندها وأفضل من الزوج والزواج . . .

فالتفتت إلى زوجة المصور وقالت :

— الا ترى معى أن فى هذه الحيوانات شيئا « إنسانيا » بالمعنى السامى لهذه الكلمة ؟

فقلت مؤمنا :

— هذا صحيح . بل ان فيها أحيانا الانسانية اكثر من الانسان نفسه ! إن فكرة « الشر » غير موجودة عند الحيوان إن أغلب الحيوان محب للسلام والاخاء والصفاء . والقليل الذى يطلق عليه اسم « الضوارى » لم يعرف قط العدوان لمجرد الزهو بالعدوان . الإنسان وحده من بين مخلوقات الأرض هو الذى يرى فى الاعتداء على أخيه الانسان ما يسميه « المجد والفخار » !

فقالت زوجة المصور :

— إنى معك فى هذا الرأى . إن وحشية الإنسان قد بلغت حداً لم يبق معه إلا أن نرد اعتبارنا إلى الحيوان وأن تعدل نظرتنا إليه وأن نتخذه هو المثل الاعلى لما ينبغى أن يكون

عليه سلوك الإنسان ، إذا أراد إقرار الخير والسلام فى الأرض ...

* * *

ومضينا فى هذا الحديث حتى التاسعة . فنهضت زوجة المصور . واستأذنت فى النزول . فقد كانت فى انتظارها نساء من أهل القرية ، اعتادت منذ هبطت الريف ، أن تضع « القطرة » فى أعينهن ، وأن تعنى بشأنهن ...

ورأينا أن نأوى إلى حجراتنا نحن الآخرين ، كى نستيقظ مبكرين ، فنرى شروق الشمس . فقد قال المخرج أنه يود لو يستنبط من طلوعها بين النخيل « عبارة سينمائية » ذات بلاغة وروعة ...

٧

دخلت حجرتى فوجدتها تضارع جهنم . فالحريكتم الانفاس . والهوام تملأ جو المكان . وصوت البعوض يدوى فى الآذان . وجاءنى خادم من فلاحى هذه القرية قد ألحق مع من ألحقوا بخدمة هؤلاء الفنانين ، فوضع دواء فى إناء يتصاعد منه بخار طول الليل يطرد البعوض والهوام . ذكر لى أن السيدة زوجة المصور قد أوفدته به . فهى لا تنسى شيئا مما ينبغى عمله لتوفير أسباب الراحة الممكنة فى هذا الريف ، فحمدت لها ذلك . ولحظت نظافة هذا الفلاح . فسألته عن أمره . فذكر لى أن « الست الخوجاية » هى التى علمته وافهمته أن يكون نظيفا . وأنها تراقب بنفسها كل يوم غسيل ثيابه . وأنها تتعهد بالعلاج ما يمكنها علاجه من صحته . وتلاحظ أمر غذائه ونومه وعمله وتضبط أوقات ذلك كله بالساعة . وهى تقوم بهذا كله له ولجميع من يخدمون معه ومن يتصلون بالمنزل

من الفلاحين والفلاحات ، ومن يفد عليها منهم سائلا شيئاً ، فأن الأيام القليلة التى قضتها فى إعداد هذا المنزل كانت كافية لإشعار الأهالى بشخصيتها الكريمة وقلبها الحنون النبيل . فأحبها الجميع وأطاعوها ... وأصغوا إلى نصحها وارشادها . ثم ذكر لى كيف أن هذا المنزل كان ممتلئاً بالقذر والزواحف والتراب المتراكم . فهذا المنزل كان مهجوراً منذ زمن طويل .

ونظر الفلاح فى أرجاء حجرتى وقال بلهجته الريفية :

— الست الخوجاية وقفت بنفسها علينا لما طلعنا من القاعة دى كل غلق تراب واخوه ! أصل القاعة دى ولا مؤاخـــذة فضلت مقفولة من نهار ما انقتل فيها الراجل ...

فقلت واجماً مرتاعاً :

— إنقتل فيها ...

فمضى يقول :

— إبوه ... نزلوا عليه بالبلط والفوس ...

هو مين !

ـ الراجل ...

ـ رجل مين ؟

المعلم ملطى صاحب البيت

ثم قص على القصة . فقال إن صاحب هذا المنزل كان مرابيا ، نزل هذه القرية وأقام فيها أعواماً يقرض الاهالى على مصوغات نسائهم ، حتى لم يبق فى البلدة شىء يرهن ، غير الأطيان ، فجعل ينزع من أملاك الناس ويضيف إلى ملكه ، فأثرى ثراء كبيراً . ولكن الناس أبغضوه بغضاً شديدا . أدى إلى قتله فقد دخل عليه الجناة فقطعوا جسمه إربا وهو جالس ذات ليلة فى حجرته تلك ، « يجرد » ما يختزنه من مصوغات كعادته كل ليلة قبل أن يأوى إلى فراشه . ومنذ تلك الليلة . لم يرقد فى هذه الحجرة أحد ... فقد روى الناس أنها ... « مسكونة » . وأنه يسمع فيها إذا انتصف الليل رنين المصوغات على النحو الذى كان يحدث فى حياة المرابى ...

فما كدت أسمع هذا الكلام من الفلاح حتى قلت مرتاعا :

— يعنى أنا أول من راح ينام فيها بعد الحادثة !

— إيوه

فتملكنى رعب . وأنا شـــديد الخوف من العفاريت مع الأسف الشديد . فصحت فى الحال :

— هات لى المخرج بالعجل ، الله يخرج عينيه من رأسه !

فذهب الفلاح يأتى به . ولبثت أنا فى الحجرة أجيل النظر فى أركانها التى لا يصل إليها ضـــوء المصباح إلا قليلا ، وصور لى خيالى المصوغات . فارتجفت وعلمت أنى لن أغمض جفنـــاً طول ليلى فى هـذه الحجرة . نعم انى أرهب الأشبـاح . وأنه ليخجلنى أن اعترف بهـذه الحقيقة . رجل مثلى كثير التأمل فى أصول الأشياء وجواهر الـــكائنات . غذته الفلسفة الوضعية وأشبعته الحقائق العلمية . . . نعم ولهـــذا السبب عينه أخاف العفاريت . فالخوف إنما يأتى من حـدوث صدمة فجائية لمنطق الحقائق المتواضع عليها فى حياتنـــا البشرية وبالأخص فى حياتنا العقلية . فهـذا الفلاح الذى يتصور الوجود تصويراً خرافياً

لن يصدمه كثيراً ظهور الأشباح ... أما أنا المثقف الذى يفهم الوجود على أساس المنطق العقلى ، فان ظهور شبح ، لا أستطيع تعليل سره بعقلى ، وأرى أن قد انهار أمام ظهوره منطقى ، لخليق أن يصعقنى أو يفقدنى صوابى من الفور . لقد كان يدهشنى دائما فى قصة « فوست » أن ذلك العالم الفيلسوف لم يجن لظهور « مفستو » إلا أن يكون هذا العالم قد بلغ فى قنوطه من العلم مبلغاً وضعه فى موضع المنتظر الهادىء لكل أعجوبة خارقة للعلم . ولعل هذا كان قصد « جوته » نعم ، لا ريب عندى أن رجلا مثل « كانت » أو مثل « أوجست كونت » إذا رأى عفريتاً لارتاع منه ألف مرة أكثر مما يرتاع رجل كالقديس « سانت انطوان » أو كالقديس « سان توما » على أن خوفى لملك الليلة من رنين مصوغات المعلم ملطى لم يكن لاعتقادى امكان ظهور هذه الأصوات . فالاعتقاد أو عدم الاعتقاد لا يقدم عندى ولا يؤخر ، إنما أنا أخاف نفسى . أخاف خيالى وما ينسج لى من صور ، أكثر مما أخاف الأشباح

فى ذاتها . إن أكثر الناس خوفا فيما أظن هم أغزر الناس خيالا إنى لا أخشى الواقع . إنى لا أخشى الموت ، ولا أخشى الخطر ولا أخشى الجبروت . ولا أخشى ان أطلق كلمة جريئة صريحة أعتقد أنها الحق ولو نصبت خلفها المشنقة . ولكن أخشى الانفراد فى مكان يقال لى انه « مسكون » .. آه هـــذه الكلمة وحدها هى التى « تسكن » رأسى أشباحا لن تبرح حتى يطلع النهار

* * *

لم يمض قليل حتى سمعت ببابى طرقا خفيفاً ، وظهر المخرج فما كدت أراه ، حتى خجلت أن أذكر له شيئاً مما كان يدور فى نفسى . فهو قـــد يسىء فهم موقفى ، فيسخر منى أو يظن بى الظنون فرأيت أن أتحل سبباً آخر ينقذنى من هذه الحجرة تلك الليـــلة . فقلت له فى صوت المختنق وانا أضع يدى حول عنقى :

ـ اف ، الحر ...

فلم يمهلنى حتى اتم عبارتى ، وقال موافقاً وهو يجلب الهواء

إلى وجهه بمنديله :

— صدقت الحر شديد الساعة . ماقولك لو صعدنا إلى السطح . . نتنفع قليلا بالنسيم . ونتحدث فى أعمال الغد . إلى أن يتقدم الليل قليلا ويعتدل الجو فى الحجرات ؟

فأسرعت انتهز الفرصة :

ليس والله خير من ذلك !

وخرجنا من الحجرة . وأنا أرجو فى نفسى أن يطول بنا المقام ، فلا أعود إلى حجرتى المشؤومة تلك الليلة مطلقاً . وصعدنا إلى السطح . فلم أجد به أحدا . فلقد كان جميع الرفاق الآخرين قد آووا إلى حجراتهم ، مطمئنين ، هادئين ، إلا ذلك المخرج . فقد وجده الخادم لحسن حظى مستيقظاً ما يزال يتمشى على السطح حيث تركه أصحابه عقب العشاء والسمر . فقد راقه جمال الليل . ونقاء الهواء فنشط ذهنه للتفكير فى فنه وكانت المائدة مازالت قائمة بعد أن رفعت عنها الأطباق ولم يبق عليها سوى زجاجة من « البورتو » وبضعة أقداح

و « ترموس » به قهوة ساخنة . فجلسنا . . .

وقال لى المخرج :

ـــ كأساً من البورتو ؟ أو فنجانا من القهوة ؟

فقلت من فورى ، وقد تذكرت عزمى على السهر !

ـــ بل كثيرا من القهوة !

٨

جرع صاحبي كأسين من (البورتو) أفرغا فى ذهنه النشاط . وجرعت قدحين من القهوة ألقيا فى عينى اليقظة ، وهيآنى لاجتياز تلك الليلة التى لن أعود الى مثلها . وساد علينا صمت مريح . قطعه الرجل قائلا :

والآن إلى العمل قليلا ولنقتهز الفرصة ونتحدث فى (السيناريو) .

فشعرت كأن الخور والفتور يدبان فى أعصابى ، وأحسست كأنى موشك على التثاؤب . وأيقنت أن النوم لابد هاجم على إذا تحدث هذا الرجل فى قصته فنهضت على قدمى واثبا وبادرته

— ما قولك فى نزهة صغيرة على جسر ترعة هذه القرية .

فقال من فوره :

— فكرة بديعة .

ثم نهض . ونزل معى إلى الطريق . فوجدنا ببابنا خفيرين

نظاميين نصبهما العمدة لحراسة منزلنا . فأبيا أن يتركانا نسير في الليل بلا دليل . فبقي أحدهما بالباب ، وتبعنا الآخر ببندقيته الحكومية العتيقة الطراز التي تصلح للإرهاب ولا تصلح لقتل الذباب ! ومشينا الهوينا إلى الجسر ، فقابلنا قوماً من الفلاحين يهبطون بحميرهم من (داير الناحية) عائدين إلى دورهم . بدأونا بالتحية . فرددنا عليهم بمثلها . وما كادوا يتبينون خلفنا الخفير النظامي حتى أدركوا أن لنا شأنا وقدرا فترجلوا احتراما . وقال لي صاحبي :

— ما قولك لو استعرنا منهم حمارين نمتطيهما في هذه النزهة ؟

فكاشفنا القوم برغبتنا فصاحوا من تلوبهم :

— تفضلوا ! تفضلوا ! يا ألف مرحبا !

وأقبلوا يرفعون صاحبي بسواعدهم على ظهر حمار . ورأيت بعضهم يهرش جسده هرشا متصلا . فقلت لصاحبي أنبهه :

— لا تنس أن القمل قد سكن أجسام هؤلاء المساكين !

فقال صاحبي وهو يعتدل على ظهر الحمار :

— لا بأس . سأغير ملابسى قبل النوم .

وركبت مثله . ووعدنا الفلاحين برد الحمير اليهم مع الخفير فانصرفوا راضين . وسرنا فى طريقنـــا والمخرج فرح بالمطية . والتفت إلى قائلا فى ابتسام .

— ما أكرمهم ! لعلهم أسكنوا القمل أجسامهم كرما منهم وحسن ضيافة ! مهما يكن من أمر فانى أقدر هذه النفوس الطيبة الكريمة تقديراً كبيرا ! . وانك لتستطيع أن تدرك قيمتهم وتلمس الفرق فى المعاملة والسجيـــة لو هبطت قرية أوربية وسألت أهلها شيئاً يسيرا . لا . ان شعبكم كريم العنصر بلا جدال . أما قذارة المظهر فهى تدهشنى حقا . ولست أدرى ما علتها ؟ أهى قلة الماء وانتم لديكم بحران من اكبر البحار ونهر عظيم ، وجو حار يغذى الأجسام بالاستحمام !

وسكت فجأة عن الكلام . وارتفعت من فمه صيحة :

ستهوى بنا الحمير إلى الماء !

لقد اصاب . فان تلك الحمير كانت تسير على عادتهـــا العجيبة

سيرا لا يبعث على اطمئنان أمثالنا من الفرسان الخائبين . فلقد كانت تترك عن عمد الطريق الواسعة المستقيمة وتنحدر إلى حافة جسر الترعة حيث لا يفصل بينها وبين الهاوية غير أشبار وهى تسرع فى الخطى تارة وتتصادم ارجلها وتشتبك تارة أخرى ، غير حافلة بشىء . كأنها تضيق بالأمن والعافية وتسعى إلى الخطر تلاعبه وتداعبه بأطراف حوافرها . كما يفعل المتصوفة الذين ينصرفون عن طرق التفكير المعبدة إلى اللعب بأفكارهم على حافة اللانهاية ...

وسرنا لحظة صامتين . نتأمل الحقول والنبات والمياه الجارية فى القنوات . وقد اتخذت فى ضوء القمر ألواناً وأشكالا جديدة . وسكن حولنا كل شىء . فالنسيم كان أرق من أن يثير شيئا . ومع ذلك فقد كنا نرى الكائنات من حولنا كأنها ساكنة وغير ساكنة . كأن هنالك أنفاسا خفية تبعث فى الأشياء شبه رقصات لاعبة عابثة لاندركها بحواسنا الظاهرة وخيل إلينا أن آذاننا تسمع ضحكات خافتة تتصاعد من كل

شيء. ولكنها ضحكات كالهمهمات. وحركات كحركات أجسام الغانيات الثملات لكأن الكائنات تغتسل فى ضوء القمر ...

وقال المخرج كالمخاطب لنفسه.

— إنى أرى الأشياء الآن كما يراها النظـــارة من خلال ستار الموسلين الذى يضعه مخرجو المسارح عند تمثل الأحلام

فلم أحر جوابا ...

وخيم علينا الصمت من جديد. فقد أخرست لساننا تلك الروعة التى تحيط بنا من كل جانب.

وهمس صاحبى من بين شفتيه:

— ما أجمل هذا الريف!

ثم اعتدل وذكر لى مرة أخرى ان زوجة المصور التى مكثت فى هذه القرية اسبوعا تكاد تجن سروراً وإعجابا بهـــذا البلد. وتتمنى لو تقضى حياتها فى ذلك المكان. ولو تمنح ايامها كلها لهؤلاء الفلاحين، تعينهم على تجميل حياتهم وتوسيع مداركهم ليتذوقوا ماوهبتهم الطبيعة من جمال. إنهـــا تقول

إن الشمس والقمر فى هـــذه البلاد يعملان عمل الخياطة البارعة . فهما يلبسان الكائنات بسخاء أثوابا جديدة مختلفة رائعة الألوان ! إلا الفلاح ، فقد خرج من الحساب ، لأن أمر لباسه ليس من « اختصاص » الشمس والقمر . نعم كل شىء نظيف جميل فى هذا الريف إلا الإنسان . وهذا ما يغمرها هى الأخرى دهشة وحسرة . . .

فقلت لصاحبي وانا أتنهد :

ــ أنا ايضا يملؤنى ذلك دهشة وحسرة ، منذ أعوام طوال !

فقال :

ــ وما العلة ؟

فجعلت أفكر وانكلم كالمخاطب لنفسى :

ــ العلة . العلة ظاهرة .

أنت وحـــدك ذكرتها الآن دون أن تلحظ ذلك . العلة هو أنه لاتوجد فى مصر بعد امرأة مثل زوجة المصور . العلة تستطيع أن نتبينها على نحو بارز ، لو رجعنا إلى تاريخ الريف

الأوروبى . فلنأخذ ريفكم الفرنسى مثلا . ما الذى حدث فيه ؟ لقد كان فى عهـــد النظام الاقطاعى بيد الأشراف . أولئك الأشراف هم الذين جملوا الريف . بدأ سيد المقاطعة بتشييد قصره الجميـــل النظيف . وقطنه مع زوجته وأولاده . واعتبر أهالى المقاطعة رجاله ، الذين يعملون لخيره وعزه وسلطانه . ويعمل هو لحمايتهم . على أن المهمة العظمى فى رفع مستوى أولئك القرويين كان قوامها : زوجة الشريف . أنها هى باستقرارها فى الريف واتصالها بزوجات كبار القرويين ، عملت على إدخال المثل الصالح فى النظافة والذوق إلى جميع البيوت . لقد كانت هى المرجع الأعلى لشئون الصحة والبيت . إذا حدث مرض جاءتها النساء يسألنها دواء . وإذا وقع حدث جئنها يسألنها النصح . أنهـــا المديرة لشئون البيت والصحة والنظافة والذوق للقرية والمقاطعة كما أن زوجها الشريف هو المدير لشئون الأمن والقضاء . إنها هى الحاكمة المطلقة لشئون الحياة الاجتماعية فى دائرتها ، كما ان زوجها هو الحـاكم المطلق

لشئون الحرب والكسب. هى التى تنظم الحفلات وتعد المجتمعات وتنشر النماذج الصالحة لكل ماهو جميل ... من ملبس وتحف وأوضاع ومراسيم يجتذبها ويقلدها زوجات الأثرياء من القرويين أو المقربات من القرويات وهن مشدوهات الأفواه ، مفتوحات العيون ، ويذهبن فيتحدثن بهذا فى القرى ويدخلن هذا على أنفسهن وبيوتهن ... إلى أن ذهب نظام الاقطاع ومضى زمن الاشراف . وجاء عهد الديموقراطية ... فلم يتغير الوضع . فقد حل فى الريف محل زوجة الشريف زوجة المالك الكبير أو زوجة القروى الغنى . وقد ورثت كل صفات السيدة الشريفة فوجدت من واجبها أن تجتذبها . وتقوم فيمن دونها من فلاحات القرية مقام المرشد المعين . أما فى المدن فقد حلت كذلك زوجة التاجر الموسر والصانع والرأسمالى محل النبيلة وورثت واجباتها ومهامها فى المجتمع فأصبحت هى التى تزور الاحياء الفقيرة . تواسى المرضى وتمدهم بالأدوية والنقود وتحمل الأطفال

اللعب والحلوى ... لم يأت عصر فى أوروبا تخلت فيه المرأة عن واجباتها باعتبارها سيدة . لانها تعلم أن كلمة سيدة لم تطلق جزافاً . إنما هى وظيفة فى المجتمع لها عمل يستغرق وقتا وجهدا . ولها مظهر سيادة وقيادة لمن يحتاج إلى المعونة من أتباعها فى الريف أو جيرانها فى المدن . لقد تغيرت الاسماء السياسية والاجتماعية فى أوروبا ولكن المهام والاعمال لم تتغير . لقد طلى لون السلم الاجتماعى بطلاء آخر . ولكن هذا السلم قائم دائما . لأنه من نواميس الحياة الثابتة .

ينبغى أن يكون هنالك دائما طبقة تتقدم فى الثراء أو فى المعرفة . غير أن الذى شوهد فى أوروبا ومازال يشاهد فيها هو أن كل طبقة فى أعلى السلم تمد يدها لكل طبقة فى أسفله .. هنالك تماسك بين الدرجات . هنا نموذج يتبع ومثل يعطى من الطبقة العليا للطبقة السفلى .

هذا ماحدث فى أوروبا . أما فى مصر ، فلم يحدث ذلك ، فان الاقطاع فى مصر ، كان فى يد أرستقراطية أجنبية من المغول

أو الاتراك العثمانيين ما كانوا يعتبرون الفلاح رجلهم بالمعنى الأوروبى للكلمة ولكنهم كانوا يعدونه عبدهم بالمعنى الشرقى للكلمة . بل أقل من عبدهم فقد كان للكلب والفرس عندهم من الحرمة والكرامة والحقوق ماليس للفلاح ، هذا الفلاح الذى يتكلم لغة غير لغتهم ، ونبت فى أرض لم تكن أرضهم .

لقد كان القروى الفرنسى يعتبر الشريف سيدا ، ولكن السيد كان يعتبر القروى مثله فرنسيا . يحارب معه جنبا إلى جنب . أما السيد التركى العثمانى فكان يعتبر الفلاح المصرى من طينة قذرة . فما كان يسمح له بشرف الجندية ولا الفروسية ولا بشرف المصاحبة فى حفل أو اجتماع . وهذا عمل المولى . أما عمل المرأة زوجة هذا المولى . وهى فى أكثر الأحيان من الجوارى البيض . فلا شىء إلا متعة سيدها . وهى على كل حال قد وضعت فى الحريم . لا شخصية لهـــا ولا مهمة ولا عمل إلا ما يمكن أن تقوم به المملوكات . يضاف إلى ذلك شعورها هى أيضا بذلك الازدراء لكل ما يسمى « فلاح » . ذلك الشعور

الذى يحول دون كل حدب على هـــذا الجنس ، الذى تعتبره غريباً عنهـــا ، وضيعاً فى عينها ، فهو جنس المحكومين حقيرا فى عرفها لا يرجى منه ولا ينبغى أن يرفع من شأنه أو يغير من أمره شيء . وعلى هذا النحو ، انشطرت مصر إلى شطرين بعيدين ، وانقسمت إلى طبقتين لا تمـــد إحداهما إلى الأخرى يدا . وبدأ السلم الاجتماعى على ذلك الشكل العجيب : طائفة فى أعـــلاه وطائفة فى أسفله ، ثم لا شيء بين ذلك غير فراغ . فقد تحطم وزال فى هـــذا السلم ما بين الأعلى والأسفل من درجات . . . وانقضى عهد النظام الاقطاعى فى مصر . وجاءت العصور الحديثة . فلم يتغير بالطبع هـــذا الوضع ، فالمالك الغنى أو الفلاح الموسر الذى حل فى الأرض محـــل السيد العثمانى ، قد ورثه كذلك فى طباعه وقـــلده فى ميوله وعاداته . فتزوج هذا الفلاح المـالك بالجوارى البيض ، وجعلهن فى الحـــريم . وازدرى أحياناً هو أيضاً أبناء جلدته من الفلاحين . ثم ذهبت « بدعة » تقليد الأتراك بالزواج من الجوارى البيض . ونشأت

القومية المصرية ، وظهرت مبادىء جديدة واتجاهات حديثة . وتعلمت المرأة المصرية فى المدارس والجامعات ، وعرفت كيف تتكلم فى المجتمعات ، وتكثر من ألفاظ الحرية والمساواة بالرجل ، وحقها فى هذا وحقها فى ذاك ... ورغبتها فى محاكاة أختها الأوروبية . ولكنها بقيت حتى الساعة التى أحدثك فيها وريثة الجوارى البيض قد دخل النور قليلا رأسها بفعل التعليم ، ولكن روحها ما يزال فى أكثر الأحيان روح الجوارى البيض ، إنها ما زالت بعيدة عن أن تكون « سيدة » بالمعنى الأوروبى للكلمة . فالسيدة باعتبارها وظيفة فى المجتمع ، يقوم على كاهلها أعباء مواساة الفقير ومداواة المريض من أهل حيها أو ريفها ، وتجميل القبيح من بيتها ، وتعمير الخرب من أحوال بيئتها . السيدة باعتبارها شخصية قائمة إلى جانب زوجها السيد ، مسؤولة عن أشياء لا يستطيع هو القيام بها . هذه السيدة التى تعد قوة بناء فى المجتمع لم توجد بعد ... ولكن الذى وجد حتى الآن ، نساء يرتدين أحدث ثياب السهرة مقلدات

« السيدات » . قد اتقن بعض الشيء الظهور فى الحفلات ودور السينما والولائم والرطانة ببعض اللغات .

ولكن ...

وصحت فى الحال فقد قطع حديثى صوت غريب دوى فى الفضاء الساكن ، ألقى الاضطراب والخوف فى نفوسنا . وكنا قد بلغنا فى سيرنا منزلا كبيراً جميلا ، لا ينبعث منه ضوء ولا صوت إلا ذلك الصوت الغريب ... فالتفتنا إلى الخفير خلفنا مرتاعين فهدأ من روعنا قائلا :

— دى سراية الباشا ...

ثم ذكر لنا انها مغلقة ، ولا أحد فيها غير ناظر العزبة ، يحتل منها الطابق الأرضى . أما الطابق الأعلى فيسكنه ذلك « البوم » الذى يحدث هذا الصوت الغريب . وجعل يصف لنا هذه السراية وما فيها من أثاث ، ويقول بلهجته الريفية فى إعجاب :

آه لو كنتم تدخلوها وتتفرجوا عليها من جوه ! ياصلاة النبى أحسن ! ما يبجى فى ريحها بق إلا سراية البك عبد الغنى .. !

فسألناه عن هذه السراية الأخيرة ، فقال إنها فى الجهة

الأخرى من الجسر فى عزبة واسعة لهذا البك ، وقال لنا أيضاً إنها مغلقة لأن البك والست مقيمان فى القاهرة . . . فما تمالكت نفسى والتفت إلى صاحبي وقلت له :

أرأيت حرم الباشا وحرم البك ؟ تركن عملهن هنا . . عمل « السيدات » وأقمن فى القاهرة ليذهبن كل ليلة إلى السينما ، هذا ما عملته نساؤنا اليوم بعد أن خرجن من قفص « الجوارى البيض » ! آه يا صاحبي . إن « السيدة » الجديرة بهذا الإسم : هى زوجة زميلك المصور . تلك التى ورثت شخصية سيدات الاشراف ، ففهمت كيف تكون نافعة مفيدة للإنسانية أينما حلت . إنها تريد أن تمكث هنا لترفع شأن هذا الفلاح المسكين وهى لا تربطها به صلة غير صلة البشرية . سألتنى عن العلة فى قذارة هذا الفلاح . فقلت لك وأقول وسأقول دائماً : العلة هى المرأة . يوم تتخلص المرأة المصرية من روح « الجوارى البيض » ، وتتقمص روح « السيدات » تعال انظر عندئذ إلى الريف المصرى والفلاح المصرى .

٩

عـــدنا إلى المنزل وقد انتصف الليل . فدخلنا وأوصلني صاحبي إلى باب حجرتي وقال :

ــ نوماً هنيئاً .

فتذكرت من فوري العفاريت ورنين المصوغات وانتصاف الليل ، موعـــد انطلاق الأشباح كما تروى دائماً الأساطير والخرافات . فوقفت جامداً على العتبة فقال صاحبي :

ما بك ؟

ــ النوم الآن مستحيل . . . فالحر والبعوض . . .

ثم جذبته من يده وقلت له :

هلم بنا مرة أخرى إلى السطح . . .

ــ كما تريد .

وصعدنا . فارتمينا في الكراسي ، نستريح لحظة مما أصابنا من ظهور الحير . ولم يمض قليل حتى اعتدل المخرج في مقعده

والتفت إلىّ قائلا :

ـ لو انتهزنا الفرصة وعدنا إلى الحديث فى السيناريو ...

فقلت فى نفسى :

ـ آه .. أهرب من العفاريت تحت ، ألقى السيناريو فوق..!

ولم يمهلنى المخرج ولم يرحمنى . فقد عاجلنى بقوله :

ـ مارأيك فى موقف « حسن » ؟

فالتفت إليه حائراً منزعجا :

ـ حسن من ؟

ـ أبو مهدى .

ـ ومن مهدى ؟

ـ عجبا .. بطل القصة .

ـ آه .. لا مؤاخذة .

ـ هل ترى إذن موقف غرامه بأمينة طبيعيا ؟

ـ ومن هى .. أمينة ؟

ـ عجبا لك ، بطلة السيناريو .

— آه ، لا تؤاخذنى .

— انك تنسى بسرعة مدهشة . لكن . . . لا بأس . ورمقنى بنظرة تسامح أخجلتنى . فرأيت السلامة فى أن انجنب الليلة هذا الحديث فنهضت أبحث عن شىء يشغلنا عنه ، فوجدت سلماً خشبيا مسندا إلى جدار حجرة فوق السطح كانت تستخدم فيما أرى برجا للحمام ... فصعدت درجات ذلك السلم حتى انتهيت إلى سطح هذا البرج ، وهو أعلى المنزل ، بل أعلى مكان فى القرية يشرف الناظر منه على الحقول والجداول والطرق والمساكن . فوقفت على هذه القمة . فأعجبتنى المناظر التى تكشفت لى منها ، فناديت زميلى ، فصعد خلفى ، ووقف إلى جانبى يتأمل النخيل ، رشيقة نحيلة تمايل تحت النسيم ، وقد كلل نور القمر رؤوسها بذلك الغلاف الشفاف . . فما تمالك صاحبى أن صاح :

— انظر ! كأنها غيد ملاح خارجة من الحريم تمايل محجبة بالحرير !

وجعلنا نتأمل كل شىء فى سكون . وهبط صمت عميق على

القرية . فكل شيء فيها قد نام . وإذا صاحبي يشير بأصبعه إلى بعض دور الفلاحين حولنا ويهمس :

انظر . . . فوق هذه الأسطح . . .

فالتفت حيث أشار وهمست :

— ماذا ؟

— ألا ترى ... هناك ...

فحققت النظر وقلت :

أخبرني أنت ماذا ترى ؟

فقال في نبرة الإعجاب :

— هذه الأطياف الصاعدة إلى السطح متدثرة في السواد ، لا يبدو منها غير عيون جميلة براقة ، انظر ، انها تتمايل بقدودها النحيلة كأنها النخيل الثملة من لعب النسيم . تلك غيد من حسان الريف قد اتخذن من الليل ستارا وصعدن إلى حيث يلقين عشاقهن المنتظرين تحت الجدران !

فكتمت ضحكي وقلت له :

ـــ نحن الساعة أبعد ما نكون عن قصة « روميو وجوليت » فهؤلاء النسوة التعسات انما تركن هن أيضاً « القيعان » إلى السطح هربا من الحر والقمل والبعوض . ولا شيء غير ذلك . فلم يرق صاحبي هذا الكلام . فهو لا يريد أن يرى فيما حوله الحقيقة « الواقعة » . فقد عاد يقول كالحالم ان أمينة بطلة قصته ينبغي أن تخرج في الليل كأنها الشبح تطل على مهدي حبيبها من أعلى السطح فيراها كأنها الشمس الطالعة من الشرق ، قد سطعت بهائها فرض القمر غيرة وحسرة وبهت لونه وشحب وجهه ولقد شعت عيناها بوهج لألاء خالته العصافير فلق الصبح فأخذت في التغريد والغناء ، وانها ما تكاد تبصر حبيبها يتسلق الجدار حتى ترتاع قلقاً عليه خشية أن يراه أهلها فيريدوا به شراً ... فنصيح به ... ماذا ينبغي أن تقول له والتفت إلى صاحبي قائلا :

ـــ هنا يبدأ الحوار ... ماذا ينبغي أن تقول هذه الفتاة ؟

فأجبت في سخرية خفية :

— تقول . « كيف ولماذا جئت هنا ، والجدران عالية ، آه لو رآك أهلى هنا لقتلوك ، فيجيبها : انه الحب قد أعارنى أجنحته لأرقى بها هذه الحيطان . فعقبات الأحجار لا تستطيع صد الحب . لقد أعارنى الحب ذكاءه فأعرته عينى . إنى لست ملاحا . ولكنك لو كنت شاطئا فى بحر من البحار النائية لنشرت فى الحال شراعى وانطلقت أجوب إليك البحار فتقول : « أخشى أن يباغتك أهلى هنا فيقتلوك » فيقول : وا أسفاه . أن عينيك لأشد خطراً على من عشرين « فأسا ، من « فئوسهم » فتقول له . اتحبنى حقا ؟ إنك قائل نعم ... فيجيبها : نعم وأقسم لك بهذا القمر الساحر الذى يطلى ضياؤه بالفضة هام هذه النخيل » . فتقول له : آه ، « لا تقسم بالقمر . هذا القمر المتقلب الذى يتغير فى كل شهر . فانى لأخشى أن يكون حبك مثله لا يثبت على حال . لا . لا تقسم . حسبى سعادة انى أراك وأن كانت سعادتى الليلة لم تبلغ التمام . فقد جاءت سريعة مفاجئة ، كأنها البرق الخاطف يذهب لمعانه قبل أن

نستطيع حتى أن نصيح : هاهو ذا قد لمع ! فالتفت إلى صاحبي غاضبا فى غير جد :

ـ أتهزأ بى ؟ ذاك حوار من شكسبير !

ـ فقلت باسما :

ـ ماذا أصنع لك ما دمت تأبى إلا أن ترى الأمور بعين الخيال والقصص . إنما الحقيقة التى أعرفها هى أنى لم أرتبط فى هذه الريف غراما ارتفع إلى هذا المستوى الشعرى ، الذى يدخل فى إطاره القمر والشمس والنسيم والزهور والندى . . . لو أن هذا الغرام وجد لو جدت النظافة فى الحال ، ولو جد شىء من الذوق ، ولو جد شىء من الجمال . لاشىء يخلق فى المرأة الرغبة فى التجمل والشعور بكل ما هو جميل غير الحب النبيل . كل ما يدرك من أمر الحب هنا ، إنما هو حب الحيوان أو حب العبيد شىء مباشر وضيع زهيد ، يأتى ويذهب فلا يخلف أثرا غير الأثر المادى البيولوجى الذى يخلفه عادة بين طائفة القرود أو الزنوج . أما ذلك الحب الذى يأتى فيفتح العيون والنفوس على ألوان من الحسن وضروب من الاحساسات

الرفيعة . ولا يذهب حتى يترك صاحبه وقد تكون تكوينا جديداً وسما على نفسه سموا ملحوظا ! ذلك الحب الذى كان دائما خير مدرسة للمشاعر البشرية العليا . ذلك الحب الذى كان دائما النبع الذى انبثق منه الفن والجمال ؛ عماد الرقى الانسانى . ذلك الحب لا يمكن أن يوجد الآن فى هذه البقاع ، لأن وجوده معناه أن الانسان الأعلى قد وجد . وهذا مالانستطيع أن تنعت به بعدهذه المخلوقات المسكينة . وقد تسألنى .

ولماذا لم يوجد هنا هذا الحب . فأقول لك مرة أخرى . لأن العلة هى دائما العلة : ان الحب الرفيع لا يظهر مطلقاً فى جو العبودية . ولا ينبت إلا فى أرض الحرية الروحية ، والمرأة المصرية ربيبة الجوارى لم تكن تفهم من الحب إلا ما تفهمه الجارية المملوكة . إن الحب الرفيع زهرة ينبغى أن تتساقط بذورها من السماء . وليس فى جو « الحريم » المغلق سماء . . .

هنا قاطعنى صاحبى صائحا :

— عجبا ، أو لم ينقض عهد الحريم بعد ؟ إنى أرى المرأة

المصرية فى المدن قد خرجت سافرة وتعلمت وبدت كالمتحضرة ،

فقلت له :

— نعم ، حدث هذا الانقلاب . وقد جاهد مصلح اجتماعى هو « قاسم أمين » طول حياته من أجل هدم قضبان « الحريم » المادى . وقد نجحت صيحته . وكسرت المرأة قيودها المادية ، وظهرت فى المجتمع على صورة شبه متحضرة . ففرحت وتملكها الزهو وظنت أنها بلغت النهاية .

ولكن . . . للأسف ! لقد اتضح لعينى أنها مازالت ترزح فى قيد آخر لم تلتفت إليه . قيد يحتاج إلى صيحة أخرى من قاسم أمين آخر يتم المرحلة ! . . . أن المرأة المصرية قد خرجت حقيقة من سجنها المادى ولكنها مازالت رهينة سجنها الروحى . أنها فى شبه حريم معنوى لا تكاد تحسه ، لأن مدار كها المعنوية مازالت قاصرة . إن الحب الرفيع مجهول لا عند نساء الريف وحدهن بل عند نساء المدن المتعلمات أيضاً . لأن روح الجوارى البيض كامن مازال فى هؤلاء وأولئك

على السواء . ولو وجد هذا الحب فى الريف والمدن لوجد الفن العظيم فى الحال . انى باعتبارى روائيا لا أستطيع أن أتصور حوارا رائعا بين مصرية ورجل تحبه . لو وجد الاثنان فى حديقة مقمرة ماذا يقولان ؟ من العسير أن اتخيل شيئاً جميلا يقال بين هذين المحبين . فهى ما زالت على الرغم من حريتهـــا المادية تحس كأن شيئاً سجينا فيها . إنها لا تدرى ماذا تقول لحبيبها عند اللقاء ، فليس فى تاريخ عصورها القريبة ما يسعفها . وليس فى الفاظ لغتهـــا العادية ما يواتيها لساعتها ، وليس فى مداركها ومخيلتهـــا ما ينقذها . إن الأوروبية تتكلم فى الحب وأمامها صورة بياتريس الألهية حبيبة الشاعر دانتى . ولو رادى توفس ملهمة بترارك . وتتمثل ما جرى بينهما من نبيل الحوادث وتتذكر ما تعلمته من جميل الشعر والأحاديث والمثل العليا التى يوحيها الحب النقى الطاهر . إن الفن والشعر والأدب قد علم المرأة الأوروبية ماذا تقول وماذا تفعل اذا أحبت . لأن الفن والأدب كانا من لزوميات سيدات القصور منذ عهد الاقطاع .

فهن حاميات الشعراء والفنانين . وهن المتذوقات المتفهمات لنتائج قرائحهم ومَن غير المرأة ينبغى له أن يتذوق محاسن الطبيعة والاذهان . ومَن غير الجميلة يقدر الجمال . ثم ورثت نساء الشعب عن سيدات القصور هذا التقليد ، فصرن يقبلن على الفنون يجملن بها أرواحهن اقبالهن على الاصباغ يجملن بها أجسامهن . وصارت القادرة منهن تفتح صالونها للفنانين والشعراء . وارثة بهذا عن سيدة القصر حق حماية صانعى الجمال والذوق . ذلك أن السيدة الجديرة بأن تسمى سيدة ، تلك التى يجرى فى عروقها دم الحرية والسيادة ينبغى لها دائما أن تشعر فى نفسها أنها تحمى شيئا أو تدافع عن انسان . لذلك جعلت الاوروبية دائما من عملها الطبيعى وواجبها القومى أن تحمى الفقراء والأطفال والمرضى . ثم أهل الفنون إذا استطاعت أى تلك الطوائف من الأمة التى تحتاج إلى مشاعر المرأة الرقيقة النبيلة . هذا هو معنى الحرية الروحية عند المرأة . تلك الحرية التى أطلبها لبنات جلدتى فى مصر والشرق . واتحمل

أحيانا الأذى منهن لانى أصارحهن فى عنف بما هن فى حاجة اليه ليبلغن هذه الغاية . فأنا مؤمن كل الإيمان بأن بلادنا كلها تنقلب انقلابا عظيما عجيباً لو تمت هذه المرحله الثانية من مراحل نهضة المرأة المصرية والشرقية . خروجها من الحريم « الروحى » ونبذها ما علق بها من آثار الجوارى . وبلوغها مرتبة « السيدة » التى تخلق شيئاً وتحمى شيئاً .

١٠

رفع صاحبي رأسه والتفت إلى قائلا :

ـــ هل أسمعت المرأة المصرية آراءك هذه ؟

فقلت من فوري :

ـــ إني لا أرى مناسبة دون أن أسمعها آرائي فيها . فأنا من أشد الكتاب عناية بشؤونها . إذ ينبغي أن أقول لك شيئاً : في المصرية فضيلة كبرى : هي أنها قديرة على التطور السريع الصامت . لذلك سمحت لنفسي دائماً أن أصارحها إلى حد العنف كما ذكرت ، حتى ألفت نظرها إلى ما فاتها رؤيته أثناء خطوها الواسع . يخيل إلى أن السهولة التي تتطور بها المصرية سببها بسيط ، أنهـــا تحتفظ دائماً بطبيعة المصرية القديمة تحت ثياب الجارية العثمانية . فما علينا إلا أن ننبهها إلى خلع هـــذه الثياب شيئا فشيئا لتبدو حقيقتها الأولى المجيدة : تلك التي كانت تحسن إدارة البيت والمملكة ، وتعنى بأمر الفنون ، وتضع أسس

الحضارة . سأتكلم دائما هذا الكلام ولن أكف عنه، وإن تعرضت للسخط العام ، حتى أرى المرأة المصرية قد نفضت عنها رداء العبيد والجوارى البيض لتظهر من تحته سليلة نفرتيتى وحتشبسوت !

فقال صاحبي:

ـ ألم يخطر لك ، بدلا من تنقلك فى الفنادق ، أن تتزوج لتخلع أنت بيديك هذا الرداء ؟

فقلت لصاحبي فى شبه صيحة :

ـ أنا أستطيع أن أخلع رداء أحد ؟ آه ياصاحبي . إنك لا تعرفنى . لقد وددت حقا لو أتزوج بمصرية . ولكن شيئا واحدا يمنعنى : هو أنى أشفق عليها من طبيعتى المتعبة . ما أنا إلا « حالة عسيرة » كما يقول الأطباء ، قد يستعصى أمرها حتى على الأوروبية المحنكة التى اعتادت أن تفهم زوجها فى هدوء وتدرس خلقه وطباعه فى صبر وسكون وتهيء له نوع الحياة التى تلائمه . كلا . إنى على الرغم من خشونتى فى القول للمرأة

المصرية شديد العطف عليها . ولست أحب أن أدفعها إلى مثل هذا الامتحان العسير .

— أخشى أن تكون مبالغا . .

— إنى لا أبالغ . إن الحمل سيكون ثقيلا عليها والتبعة جسيمة . فأنا رجل « مطلق » يعيش فى جو « المطلق » . قد استطيع أن أدير الأشياء من عل فى اجمالها ، لا فى تفاصيلها ، فمن أراد أن يشاركنى الحياة عليه أن يتحمل هو جميع الأعباء والمسؤوليات ، ولا يترك لى غير مظاهر الشركة . أو على الأقل مسائلها الكبرى . ينبغى بالاختصار لزوجتى أن تجعل منى « ملكا دستوريا يملك ولا يحكم » ! على أنى فى ذلك أيضا أحتاج إلى يد بارعة تخفى سلطانها فى قفاز من المخمل الناعم ، وإلى سياسة حاذقة لا تشعرنى بحقيقة الواقع . أشعرونى دائما أنى مطلق الحرية وأنى صاحب الأمر والنهى ، واسلبونى بعد ذلك ماشئتم من حرية ونفوذ فى أسلوب لطيف غير منظور . الويل كل الويل لمن يدفعه سوء الطالع أو الحمق وقلة التبصر

إلى أن يضع فى قدمى قيداً أشعر بوخزه ! ... ولكن النجاح حليف من يعرف كيف يربطنى ، دون أن أتنبه ، بخيط حريرى دقيق طويل ، اتحرك فيه على راحتى ولا أحس له وجوداً ! ... إنى رجل لا أحب أن أكذب على نفسى ، ولكنى أحب أن يكذب علىّ الناس ! ...

فضحك صاحبى وقال :

— لا أظن بغيتك مما يستحيل العثور عليهـــا . ولكنك فيما أرى لم تكلف نفسك حتى عناء البحث .

— البحث ؟ ! أنا الذى يبحث عمن يضع فى يدى قيداً ! ... لم يخلق بعد العصفور الذى يبحث عن الصياد ؟ ! ومع ذلك ...

— ومع ذلك ؟

لفظها صاحبى فى لهفة وحب استطلاع . فقلت له وأنا أحاول التذكر :

— كنت موشكا على الزواج منذ عشر سنوات . لكن ...

ثم كررت بفكرى راجعاً إلى ذلك العهد وابتسمت فقد

مرت برأسي صورة ما حدث وما ثنى عزمي عن المضي في ذلك الأمر.

كنت ذات عصر راكبا عربة يجرها حصانان. وإلى جانبي احد المهتمين بشئوني. فرأينا السائق يهوى بسوطه على أحد الجوادين. فمال من الألم على شريكه كأنه يشكو إليه، والتقى رأسا الجوادين كأنهما يتساران. فجعلنا نتحدث في ذلك ونقول: إن مركبة الحياة كذلك لا يهون من أوجاعها غير أن يربط إليها شريكان يشدان عجلاتها. ويشجع أحدهما الآخر كلما سلط عليه القدر سوطا من سياطه. ثم قلنا: من يدري لعل هذا سر ذلك الحظر الذي نراه في بعض المدن على من يستعمل مركبة ذات جواد واحد. ثم مضينا في الاستطراد حتى قلنا: ولماذا لا يسري الحظر على مركبة الحياة. وعند ذاك اتجه الكلام إلي. وصارحني من معي بأن مركبة حياتي لا ينبغي بعد اليوم أن أجرها بمفردي. فإنها قد تحمل فوق ما أطيق؛ وأنا رجل غريب الأطوار، قد اسير بها سيرا غير

مألوف فأتخبط بها فى طرقات غير ممهدة لا أحفل بسوط سائق . بل من يدرى لعلى جمحت مرة فأسقط سائقى فى الارحال ، وجعلت انطلق منفرداً بمركبة بلا نور ، اركض بها على غير هدى حتى ارتطم فى جدار . وانتهى الامر بصياح ذلك المهتم بشأنى :

ـ لا بد من زواجك .

فقلت له هو أيضا :

ـ لا . إنى لست جواداً من هذه الجياد . إنما أنا حمار وحشى من تلك الحمر الوحشية ذات النقوش الطبيعية السوداء البيضاء . ما أجمل منظرها حقا لو شدت إلى عربات المدن ! ولكنها لا تطيق ان يمس رؤوسها لجام ! إنها خلقت لتمرح فى الغابات وتعيش فى حرية الطبيعة المتوحشة . معجزة واحدة تستطيع أن تجعل منها مخلوقات طيعة هادئة نافعة : غادة فاتنة فى يدها سوط من حرير تروضها فى صبر طويل . وترقص على ظهورها فى حلبة « سيرك » تعزف فيه الموسيقى

بحلو الأنغام ! فالى أن توجد المصرية التى تروض حمر الوحش فى غاباتنا الأفريقية فان أملى فى الزواج قليل .

فصاح المهتم بشأنى :

ـ يا أخى لا تعقـــد المسائل ! حمار وحشى أو حمـــار « حصاوى » ... أهم كلهم حير ! وتزوجو وعاشوا وخلفوا صبيان وبنات فى أمان الله أربعة وعشرين قراط ! داشىء مكتوب علينا جميعـــاً . أرجوك تسمع نصيحتى وتسعى جديا فى الموضوع !

ـ فى الحالة الحاضرة ... وقتى ضيق .

فقاطعنى صائحـــاً :

ـ اترك لى المسألة ...

ولم يمض شهر حتى وجدت ذلك الشخص الكريم قد خلا بى ووضع فى يدى صورة فوتوغرافيه لفتاة ظريفة وقال لى :

ـ تعجبك ؟

فتأملت الصورة مليا ثم قلت :

— من أى وجه ؟

فصاح بى :

— اعمل معروف لاداعى للفلسفة . إن كان شكلها مناسب؟

— مناسب .

— انتهينا .

ثم مد يده إلى وقال :

— وصورتك بسرعة . آخر صورة لك .

— الصورة الوحيدة الموجودة عندى ... هى صورة جواز السفر . .

— ما تنفعش ! قم بنا نعمل لك صورة « جواز » فقط !

وسحبنى من يدى . وذهب بى إلى محل « مصور فوتوغرافى » معروف . فوضعنى ذلك المصور أمام لوحة من قماش تمثل ستارة سوداء ، وأراد أن ينزع من يدى العصا ، ليضع هذه اليد فوق « درابزين » مزيف قد أتى به ، فأبيت ذلك عليه ، فرد إلى عصاى . ونظر من معى إلى وقفتى فلم ترقه فصاح فى المصور :

ـــ هو واقف على إيه !

فقال المصور :

ـــ على سلم .

فصاح به :

ـــ وايه مناسبة السلم والدرابزين ! اجعل وقفته فى جنينة وحط الورد حواليه ، وارفع الستارة المحزنة من جنبه وانصب بدلها خميلة ياسمين أو تعكيبة عنب ! بالاختصار مناظر مفرحة . .

ثم مال على المصور ، فأسر فى أذنه كلاما . فتهلل وجه المصور وقال :

ـــ فهمت الطلب .

ثم أسرع فأحضر ستائر حمراء ومناظر خضراء وأصص أزهار ورياحين وهو يقول :

ـــ إن شاء الله اطلعه يحاكى البدر فى سماه !

فأردت أن اظهر عجبى لهذه المعجزة إذ صحت . فأسكتنى وأوقفنى بين المناظر الرائعة والخضرة الزاهرة . ودخل هو فى

شيء يشبه « البطانية » السوداء يغطى جهاز تصويره ولبث فيه لحظة ثم خرج يصيح :

ـــ واحد ، اثنين ... ثلاثة . ! مبروك !

فتركت موقفى . واقبلت على المصور أوصيه :

الصورة تكون طبيعية . إياك تعمل « رتوش » ! فما شعرت إلا والمتولى شأنى قد انتزعنى انتزاعا من بين يديه ودفعنى بعيدا وأقبل على المصور يقول له :

ـــ إياك تسمع كلامه !

ثم التفت إلى قائلا :

ـــ حد فى الدنيا يقول للمصوراتى مايعملش رتوش ؟ خصوصا لحضرتك !

فقلت .

ـــ على كل حال ، لابد من كونى أطلع على « البروفة » قبل كل شيء !

فقال المصور إن تجارب الصورة يمكن الاطلاع عليها فى

صباح اليوم التالى . فغادرناه على أن نعود إليه فى الغد . ومضى النهار . وجاء الغد . فانسللت بمفردى إلى حانوت المصور . أطلع خفية على تجارب الصورة . فعرضها على . فتأملت وجهى فيها . فلحظت أن شاربى غير متساويين فى الطول . وأن شاربا أقصر من شارب . فتباحثنا فى علاج ذلك . وقلت له إن « الرتوش » الوحيدة التى آذن بها هى أن يمد ريشته إلى الشارب القصير فيطيله حتى يساوى أخاه . . وانصرفت . وانتصف النهار . وقابلت بعد ذلك المهتم بشأنى . فقصصت عليه ماحدث من أمر الشارب . فما راعنى إلا قوله إنه مر هو الآخر بحانوت المصور عقب انصرافى ، فلما علم بمسألة الشوارب ، أمر المصور أن يزيلها كلها وكفى الله المؤمنين شر القتال . فما إن سمعت منه ذلك حتى صحت فى وجهه :

— يزيلها كلها !

إيه المانع ؟

أنا بشوارب ، تعملونى من غير شوارب ، هذا العمل اسمه تزوير .

— يعنى لا سمح الله قمنا زورنا فى كمبالة !

— هو التزوير لابد يكون فى كمبالات ؟ !

— كان غرض حضرتك ان أهل العروسة يقولوا مقدمين لنا عريس « بشنب ودقن » ؟ !

— نقوم نلجأ للغش ؟ !

— وانت فاهم ان صورة العروسة خالية من الغش ؟

شىء عجيب !

— مؤكد . شىء مفهوم مقدما . وفى المستقبل يتضح لك ان ما عملناه أقل مما عملوه بمراحل . اطمئن !

فقلت من فورى :

— الحمد لله اطمأنيت . إذا كان مجرد « الشكل » وضعناه على هذا الأساس ، يبقى « الموضوع » .. فقاطعنى :

لا ... « الموضوع » مضمون أربعـــة وعشرين قيراط ، ثروتها معروفة وتحرياتنا صحيحة . وانت حالتك المالية واضحة ...

— دا كل قصدكم من « الموضوع » ؟

ـ طبعاً . فيه شيء غيره ؟

فلم أطق صبرا ، فقمت دون أن أجشم نفسي مشقة الجواب . وذهبت . وقد ذهبت عني فكرة الزواج إلى اليوم . ولم يعد شبحها يظهر الا مقترنا بذكرى هذا الحوار بنصه وألفاظه كما سمعتها ، فكانت ذكراه تقصيني من فوري عن المضي في التفكير . فهذه الشركة النبيلة بين روحين تعاهدا على السير جنبا إلى جنب في طريق الحياة الشاقة الطويلة ، ما زالت تقام في أغلب الأحيان على هذا النحو المخجل وإذا صلحت هذه الطريقة لكثير من الناس . فهل تصلح لشخص مثلي قد تتأثر حياته الفكرية وانتاجه الذهني الى حد كبير بشخصية الشريك . لذلك آثرت السلامة ، وأحجمت عن المغامرة ، خشية الوقوع في غلطة تفسد عليّ الحياة كلها .

ورجعت إلى وحدتي ... تلك الوحدة الباردة التي تحيط بي من كل جانب . فما أنا في الحقيقة دائما سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد ، وضعت داخله يد المصادفة أناء يغلى

ويتصاعد منه بخار ، هو تلك الأفكار ، التى تخرج من نافذتى إلى حيث تصل أحيانا إلى جموع الناس . فاذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لى ما سوف تلقيه فى هـذا الاناء ويتصاعد من جوفه بعد ذلك ! ...

* * *

وهكذا أنفقت حياتى متنقلا ، تائها ليس لى مكان معروف ولا عنوان دائم . فما تركت فندقا لم أنزله ولا نزلا لم أهبطه . حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش دائما هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائرة ... فأردت أن أجرب الحياة المستقرة فى مسكن ثابت اخترته فى بقعة جميلة من بقاع القاهرة ... يشرف على النيل ، وترى من نوافذه القلعة والأهرام وعنيت بأثاثه ، واعددت فيه مكتبا أنيقا وخزائن للكتب . واقتنيت سيارة . وأقمت بمفردى وحولى خادم وطاه وسائق ...

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عاماً . فقد كاد الخدم

الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلى . فالخادم النوبى جعل يكسر « اسطواناتى » الثمينة . وتحريت أمره فعلمت أنه يتربص بى حتى أخرج فى الصباح فيدير « الجراموفون » ويضع مايقع فى يده من أعمال « بيتهوفن » و « موزار » . ولا يحلو له تنظيف « الباركيه » وطلاؤه الا على هذه الأنغام .

أما الطاهى فقد كان يبدى الابتكار فى ألوانه أول الأمر . ثم قصر وتراخى حتى صار الطعام ضربا من (الروتين) لا طعم له . فكنت أحيانا أترك ما أعد لى فيه . وأذهب إلى مطاعم المدينة . ولقد كان للخدم دائما طعام غير طعامى . هو فى أكثر الأحيان ألذ وأمتع . ولطالما أمرت الطاهى أن يخضر لى مما فى قدورهم ويحمل كل هذه الألوان التى نسقها تنسيقا ظاهرا دون أن يضع فيها روحه وقلبه ...

وليس هذا كل شىء . فقد علمت أن الطاهى يعد على حسابى قدراً كبيرا من الطعام يقدمه بالأجر إلى بوابى الجيران ، وأن الخادم يدعو جميع زملائه النوبيين كل عصر عقب

انصرافى إلى تناول الشاى ولم يدهشنى ذلك فأن نفقاتى بمفردى كانت دون أن أدرى نفقات أسرة مكونة من عشرة أعضـــاء وما نبهنى إلى ذلك الاضيف عابر . على أن كل هـذا لم يغضبنى كثيراً . إنمـا الذى أثارنى حقا هو مسمار صغير وجدته يوما فى لون من ألوان الطعام ، كدت أزدرده ... هنالك لم أطق صبرا . وعلمت أن الخـــدم بلا رقابة هم خطر من الأخطار العامة ... وما ملكت نفسى عن الصياح فيهم يوماً : (والله لأتزوج لكم وأمرى إلى الله !) .

أما السائق فلا يريد أن يصغى إلى رجائى كلما طلبت اليه ألا يسرع . فأنا أبغض السرعة . إنها تمنعنى من التفكير ولطالما أكدت له انى لست متعجلا شيئـــا . ولا شىء فى الوجود يستعجلنى . فأنا عـــدو الزمن والوقت ولم أحمل ساعة قط . فالوقت عندى ليس من ذهب بل من تراب كأجسامنا ... ولكنه ينطلق بى رغم ذلك ، كأنما يريد أن يطرحنى فى أسرع وقت ، ليخلص منى وينصرف إلى شأنه . فكنت أتركه أحيانا

يقف منتظراً فى جانب الطريق ... وأسير مفكراً حراً حيث أشاء . ثم أدرك أخيرا أنى لا أحب السهر وأنى شديد الكسل وانى اكتفى بعبارة أقولها له كل عصر . « اطلع جهة فيها هواء نقى » « فين ؟ » « أى جهة تختارها » فيمشى بى حيث يريد هو ، دون أن اعترض . ويقف بى أحياناً حيث يشاء ويقدر أن المناظر جميلة والهواء منعش ، فلا أتكلم . فان فكرى منصرف دائما عنه ، مادام لا يسرع بى ولا يقول لى : « تفضل » إلا أن يرى أن الأوان قد آن للتحرك فيقودنى إلى حيث أتناول الشاى أو العشاء فى الأماكن المعتادة . فإذا أمرته فى المساء أن يذهب بى إلى السينما ... فقد عرف ألا يسألنى أيها . بل يمضى بى طائفا على جميع الدور ، فيقف أمام كل باب من ابوابها لحظة ، فاذا نزلت فقد انتهت مهمته وإذا لم انزل فانه يتحرك إلى غيرها ... وإذا مر بجميعها فلم أغادر السيارة فانه يعود بى من تلقاء نفسه الى المنزل ويقول لى « تفضل » فأنزل فى صمت . وقد شعر بقدر هذه السلطة

الواسعة فى يده فاستغلها آخر الأمر استغلال الطاغية لحرية الشعب. فكان إذا أراد أن يفرغ من عمله مبكراً ويخلص إلى شأن من شئونه، طاف بتلك الأماكن طوافا سريعا لا يكفى لإيقاظى من تأملاتى أو اخراجى من ترددى ثم ردنى الى منزلى ولما تدق التاسعة قائلا «تفضل» فأنزل دون أن أتنبه لما حدث. وفطنت ذات ليلة إلى إرادته. وكانت بى رغبة فى السهر. فما تمالكت أن ثرت لحريتى المسلوبة وصحت:

«أنت غرضك تنومنى المغرب! قسما بالله العظيم ما أنا نازل».

* * *

هكذا كان شأنى فى المسكن الخاص بين أولئك الخدم. وقد لبثت على هذه الحال زمنا. اختمرت فيه داخل نفسى جراثيم الثورة الكبرى على هذا النظام فبيت النية ذات ليلة على خلع نير هؤلاء الذين يسمون أنفسهم خدما لى. فلما كان الصباح أعددت حقائبى. واستدعيت البواب وطلبت اليه

أن يبحث عمن يحل محلى فى هذا المسكن بأثاثه ورياشه . فأتى إلى برجل انكليزى وزوجته فتركت فى عهدتهما كل شىء حتى كتبي . وغادرت ما فى البيت من أشياء خصوصية ومن مؤونة حتى زجاجات المياه المعدنية وعلب الجبن والمربة والزبد واللبن والشاى والفطائر وطردت خدمى . واستغنيت عن سيارتى . وانطلقت بمفردى حرامن جديد . أتنقل فى الفنادق وأطوف بالشوارع ، واقفز إلى عربات الترام وسيارات الأوتوبيس ، واختلط بالناس ، وأمتزج بالجماهير . فأحسست كأن الدم يعود حارا إلى عروقى وأن قدمى قد فرحتا بلمس الأرض من جديد ، وأن فكرى قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه مع السير الحر بالأقدام فى كل مكان ، وملاحظتى الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهنى الذى حبس طويلا خلف الزجاج وجعلت أقف على بائع الذرة وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة فأحادثه وأباسطه ، لايتعجلنى سائق ولا تنتظرنى سيارة ، وأصغى إلى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كناس الجهة .

فأشترك معهما فى الحديث والسمر . ورأيت الكناس يسامر البائع طمعا فى كوز . والبائع لاه عنه لاتخطر له العزومة على بال ، « فان الشغل شغل » فى عرف التجار . فشريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحداً واستبقيت لنفسى الآخر . فدعا لى الكناس الدعـــوات الصادقات . وجعل يأكل ويقص على مما عنده من أحاديث العامة البريئة اللذيذة ...

عرض هذا الشريط كله فى رأسى عندما سألنى المخرج ذلك السؤال . ولم أجبـــه بشىء غير تلك الابتسامة التى أثارتها هذه الذكريات . . .

١١

وأدركتنا تباشير الصباح فسكت عن الكلام المباح . وانقضت حاجتى إلى إمساك صاحبى . فهو حر الساعة يذهب حيث شاء ويصنع ما يشاء . وأذن الفجر فى زاوية القرية ، وأبصرنا الفلاحين يهبون ناهضين فوق الأسطح ، ويخرجون من الدور يسوقون الماشية إلى الغيطان . وسمعنا صوت المصور يصيح بنا من أسفل المنزل يدعونا إلى مشاهدة تصوير الشمس الطالعة . ووجدنا زوجته النشيطة قد قامت تأمر وتنهى الخدم ، وتباشر غلى الحليب وإعداد الفطور .

وما كدنا نفرغ من تناول القهوة واللبن حتى نهضنا إلى العمل . وتذكرت الجحش فأوفدت فى الحال من يطلبه فى دار العمدة . فجاءوا به يقولون أنهم قد عرضوا عليه كل أتانة والدة وحبلى فى القرية فما قبل أن يدنو من ثديها ، وأصر على

هذا الصوم الصوفى وأكدوا لنـــا أنه سيموت لا محالة فصاح المخرج :

ـــ أعدوا الكاميرا حالا ولنلتقط « للفيلسوف » صورة قبل أن تحضره الوفاة .

وأجلسونى فى الجرن خلف كوم القمح ودفعوا « الجحش » الهزيل إلى جوارى . فوقف المسكين كما أرادوا له أن يقف ، دون أن يتململ أو يتحرك ، ورأى أنى قد بسطت كفى مفتوحتين فى حجرى فتقدم ووضع رأسه بين هاتين الكفين ، فصاح المخرج فرحا :

ـــ هذا موقف رائع . إن « الفيلسوف » يفكر مطرقا واضعا رأسه فى كفيه ...

فقاطعته محتجا :

ـــ إنهما كفاى أنا ...

فقال المصور وهو يلتقط المنظر :

ـــ لا فرق ، أعنى ... لا بأس ... ولا ضرر ...

لا فرق ؟ لا . . بل إن هنا لك فرقا . إن هذا « الفيلسوف » أجدر بهذا الاسم منى لو انى كنت حقا فيلسوفا . فهو لا يبدو عليه انه معنى بما يصنع به . ان منظر الكاميرا يثير استطلاعه واهتمامه كما فعلت المرآة فالمرآة تجعله يعرف نفسه بنفسه .

وهو كل ما يسعى إليه ، وهو غرض الفلاسفة فى كل زمان ومكان . أما الكاميرا فهى الصورة التى يأخذها الناس عنه وماذا يهم الفيلسوف الحق أن يعلم رأى الناس فيه .

وفرغوا من أمر تصويرنا . وسلمنا « الفيلسوف » لأحد الفلاحين فأعاده إلى حيث ينتظر فى سكون قضاءه المحتوم وسرنا طول يومنا ، نضرب فى الحقول والغيطان . حتى كادت تتخلع مفاصلى . أما أصحابى فلم يبد عليهم تعب ولا كلال إنما هم جن وعفاريت قد سلطها الزمان على هذه القرية وعلى حيواناتها وعلىّ . فما من ثور أو جمل إلا صوروه . وما من محراث أو نورج إلا التقطوه ... وما من شيخ غريب السحنة أو يافع قوى البنية أو فتاة غضة بضة إلا أوقفوها وصوروها

وحيروها وأتعبوها . ثم نقـــدوا كل هؤلاء قروشا جديدة لامعة أتوا بهـا خصيصا لهذه الغاية . حتى اجتمع حولنا شيوخ القرية وفتيانهـا وفتياتها واطفالها وثيرانهـا وخرافها وإبلها ودجاجها . كل يصيح قائلا : (صورونا) (والنبي تصورونا ! .) (هات قرش يا خواجه وصور العيال !)

وتركتهم آخر الأمر يفعـــلون ما يريدون . وجلست القرفصاء على قارعة الطريق الزراعيـــه . انتظر ساعة الفرج . وأقول فى نفسى :

ـــ آه لو طلت الاتوموبيل . ووضعت رجلى فيه .

١٣

وجاء العصر أخيراً . فنبهت صاحبي إلى ساعة عـــودتى . وذكرته بالموعد الذى يقتضى وجودى فى القاهرة ذلك المساء فأمر فى الحال الخـــدم فأعدوا السيارة . وأسرعت إلى حقيبتى الصغيرة فدفعتهـا إلى من حملها . وودعت الجميع وقلت على سبيل المجاملة إنى عائد إليهم فى أقرب فرصة . تسنح ، وأوصى المخرج مساعده أن يقودنى إلى فندقى . وأخبرنى أنه سيحضر القاهرة هو الآخر بعد يومين أو ثلاثة ، وسيزورنى وأوصانى أن أضع همى الآن كله فى مسألة الحوار . ورجا أن أصنع الآن شيئاً وقد رأيت هـــذة البقعة من الريف والمواقع التى ستجرى فيهـا القصة ... وأكد القول انى أنا الآن وحدى الذى يحول دون البدء فى عملية الاخراج . فكل شىء جاهز : فالسينـــاريو موضوع ، والمواقع معروفة . والوجوه موجودة والممثلون حاضرون ، وألوف الأشرطة الخـــام قد أرسلتها

الشركة وهى تحت أمر المخرج فى مخازن كوداك كل شىء قد تم إلا الحوار . فطمأنته فى كلمتين . وصافحنى مصافحة شديدة وتركنى أصعد إلى السيارة ، وانطلقت فتنفست الصعداء . . .

* * *

بلغت الفندق فى أول المساء وقد أنهكنى التعب واجهدنى سهر تلك الليلة الملعونة . فصعدت من فورى إلى حجرتى فخلعت ملابسى المعفرة بالتراب الآهلة بالبراغيث ، ودخلت الحمام . ولبثت فى الماء الدافىء ساعة ثم خرجت منه إلى فراشى ، فنمت نوما عميقا لم انتبه منه إلا فى صباح اليوم التالى .

ومضت حياتى بعد ذلك على وتيرتها المعتادة . فنسيت ما كان من أمر هذه القصة وما يكون . وتناهبتنى المشاغل المختلفة . ومرت الأيام فما راعنى إلا صاحبى المخرج يستأذن علىّ عصر ذات يوم . فلما ضمنا المجلس ، بادرنى قائلا فى صيحة فرح :

— لقد وجدنا « أمينة » رائعة !

فقطبت جبينى :

ـ أمينة ؟

ـ بطلة القصة .

ـ آه ... !

ـ انظر ...

واخرج من جيبه صورة فوتوغرافية لفتاة ريفية باهرة الجمال حقا ، فتأملتها ملياً وقلت له :

اين عثرت عليها ؟

ـ لا أخفى عنك الحقيقة . لست أنا الذى عثر عليها . لقد بحثنا عبثاً فى القرية التى كنا فيها والقرى المجاورة عن وجه صالح فالتجأنا آخر الأمر إلى شيخ العرب (...) المتعهد المعروف لشركات أوربا أمريكا ، وهو يقيم على مقربة من الأهرام . وقد اعتاد توريد الوجوه والخيول والابل وأفراد الكمبارس لجميع الأفلام التى تصور مصر والشرق والبدو والصحراء . ولقد جئتك اليوم بالذات . أدعوك إلى خيمة الشيخ غداً حيث

يعرض علينا فرسان البدو العابا . ويقدم إلينا كثير من الفتيان والفتيات لنختار من بينهم بقية الأشخاص المطلوبه ... ينبغى إذن أن تكون موجودا معنا لهذا الغرض من الصباح الباكر

فتمثل لى شبح الجهد الذى أضنانى يوم ذهبت معهم إلى الريف فصحت :

— هذا مستحيل .

وأبديت أعذاراً شتى وتذرعت بحجج كثيرة . فما وسع الرجل إلا أن أطرق اسفا ثم قال :

— لا أقل من أن تحضر إذن وليمة العشاء .

— أى عشاء . ؟

فأخبرنى أن المتولى الأمور المالية والادارية لهذه الشركة قد أعد خيمة بجوار الأهرام . ودعا إلى العشاء مساء الغد بعض أفراد الجاليات الاوروبية المتصلين بشئون الفن . فقلت له :

— ولا هذه أيضاً . فأنا لست رجل مجتمعات ولا فائدة ترجى لكم منى ذلك المساء . فدعنى وشأنى . فأصر . وقال

أنها نزهة لن تستغرق أكثر من ساعتين . وأنه سيبعث إلى السيارة تحملنى من الفندق قبيل الثامنة . ثم نهض مستأذنا فى الانصراف قائلا :

— إلى الغد .

وذهب . فسرنى منه أنه لم يذكر شيئاً عن الحوار . فقلت فى نفسى إن تلطفه بى ينبغى أن يقابل منى بمثله ، ووطنت العزم على أن أخصص عصر اليوم التالى لدراسة قصته . وجاء الغد . فابتليت بماصرفنى كالمعتاد عن هذا الأمر ، إلى أن دخل المساء ، فمكثت فى حجرتى وخلوت إلى نفسى وقد فرغت من ارتداء ثيابى . ورأيت الفرصة سانحة فأخرجت أوراق السيناريو ، وتحاملت على نفسى ، وجعلت أطالع والحر يسيل عرقى من جبينى . والمعانى إذا كانت هناك معان تذوب قبيل أن تبلغ ذهنى . فما أنقذنى مما أنا فيه غير التليفون ينبئنى أن السيارة بباب الفندق فى انتظارى . فأعدت السيناريو إلى مكانه ، ونزلت توا ، فركبت وانطلقت ... إلى أن وقفت بى

السيـــارة أمام خيمة قد ضربت فى صحراء الأهرام . فهبطت واتجهت إليها ، فرأيتها تعج بالمدعوين والمدعوات ، وقد تبـــين لى أنى أعرف أكثرهم من قبـــل . وكانوا قد نصبوا المائدة خارج المضرب . ووضعوا المقاعد الطويلة على الرمال ... فاضطجع عليها من أراد الاضطجاع ، ودنا من المـــائدة من رغب فى الطعام والشراب وعـــلا المرح والضحك وطابت الأحاديث وحلا السمر ، وجعل المخرج يعلن فى كل مناسبة أنى واضع الحوار ، كأنمـــا يريد أن يضعنى موضع الحرج . أو يبتغى مأربا لم اتبينه . على أى حالين فقد ألب الكثير من الحاضرين علىّ وجعلهم يقولون فى شىء من الرضا والاغتباط والتـــأييد :

— لقد جذبتك الآن السينما !

فلم أدر بماذا أجيب ؟ فهمهمت بكلام غير مسموع ثم انسللت من بين الجميع وانطرحت فوق مقعد طويل أتأمل الصحراء الممتدة أمامى كأنها البحر . وأرى ضوء القمر يلاعب رمالهـــا

المتموجة فيخيل إلى أنها الأمواج . وأغمضت عينى لإخداع نفسى فأتصور أنى مستلق على مقعدى فوق ظهر الباخرة الى أوربا الجميـــلة . وشعرت بصوت شخص إلى جوارى على مقعد طويل خال . فالتفت . فاذا سيدة من المدعوات تريد أن تحادثنى .

ولم تضع وقتـــا فقالت :

ـــ إنك تحب الوحدة .

فقلت دون أن اتحرك وكأنى أخاطب نفسى :

ـــ انها كتبت على .

ـــ انى أراك تهرب من الجميع :

ـــ قبل أن يهربوا منى .

ولزمت الصمت فلم تدر كيف تمضى فى الحديث فنظرت إلى السماء وقالت :

ـــ إن القمر جميل .

ـــ هـــذا صحيح .

ولم أقل اكثر من ذلك فسكتت السيدة قليلا ثم قالت :

ـ لقد قرأت أحد كتبك ، فالفيته فيـــاضاً بروح الدعابة والفكاهة والحديث الطلى ... فتصورتك كذلك فى الحيـــاة والحقيقة ...

ـ آسف إنى خيبت ظنك .

ـ كلا . لم يخب ظنى . . انما أنت كالقمر تضىء عن بعد ...

فبادرت اتم عبارتها :

ـ فاذا دنوت منه وجدته جسما معتما .

فأسرعت تقول فى صوت المعتذر :

ـ عفوا ! لم أرد الذهاب فى التشبيه إلى هذا الحد

ـ ينبغى ذلك حتى يكون للمقارنة صدقها وبراعتها وتلك مع ذلك هى الحقيقة فى واقع الأمر .

ـ انك تغلو فى الحكم على نفسك .

ـ لا .

ـ إنى أراك الآن مثلا قد بدأت تخرج حديثا شيقا .

ـ لأنك عرفت كيف توخزين موضعاً من المواضع التى

يعنينى الكلام فيها . إنى مثل الثعبان الكسول فى أيام الشتاء يظل ملتفا حول نفسه وقد برد دمه وتجمد . فلا توقظه إلا وخزة تخرج من فمه السم . هنالك مواضيع إذا وخزنى فيها واخز لابد أن افرز كلاما . ثم أعود بعدها إلى صمتى ووحدتى والتفافى حول نفسى .

— وما هو هذا الموضوع الذى وخزتك فيه الآن ؟

— نفسى . أتريدين أن أبرز لك صورة من نفسى كما أراها ؟ انى بناء قائم على ماء جار . وصرح مشيد فوق رمال . لا شىء عندى قابل للبقاء أو صالح للاستمرار . انى لا اقدس شيئاً ولا احترم أحداً ولا أنظر بعين الجد إلا إلى أمر واحد : الفكر . هذا النور اللامع فى قمة هرم ذى أركان أربعة : الجمال والخير والحق والحرية . هذا الهرم هو وحده الشىء الثابت فى وجودى . انى كما ترين لست رجل مجتمع . فأنا لست بارع الحديث ولا حاضر الذهن ، ولا ظريف المجلس ، ولا أصلح للكلام فى الناس ، اذا حضرت وليمة فلا ينبغى أن ينتظر منى

الحاضرون اكثر مما ينتظرون من طيف يصغى ويلاحظ إذا شاء وقتما يشاء دون أن تسلط عليه أنوار تكشف عن وجوده . لقد اختلف فى أمرى من قديم كل من عرفنى ، وما زالوا يختلفون . فأنا عند البعض بسيط ساذج . وعند الآخرين ماهر ماكر . قال لى ذات مرة أحد الملاحظين لأمرى : « عجباً لك ! إنك تجهل الأشياء التى لا ينبغى أن يجهلها أحد ، وتعرف الأشياء التى لا يعرفها أحد ! » . وقالت لى صاحبة نزل أقمت فيه أياما : « اسمح لى أن استوضحك أمراً : احاول عبثاً ان استقر على رأى فيك ، انه ليبدو عليك أحيانا أنك لا تعرف ماتريد . بل يبدو عليك ، وأرجو أن تغفر لى هذا التعبير ، انك قليل الفطنة ، بسيط التفكير ، ولكنك أحيانا أخرى تبدو فوق مستوى من رأيناهم جميعاً هاهنا إدراكا وتيقظا وتفكيرا . أنت ولا شك لغز من الألغاز ! » . فى كل مكان اسمع من يقول عنى ذلك . من اجل هذا فقدت حياتى ذلك الوضوح الذى تقام عليه الحياة الثابتة . ولقد تأثرت بهذا الغموض فى تكوين شخصيتى ، فجعلت أطيل البحث فى ذلك

أنا أيضاً . فجنحت إلى التأمل الطويل منذ الصغر . وتقدمت بى الحياة . فكنت فى كل طور من أطوارها استوثق من أن الطبيعة قد ترددت هى الأخرى فى أمر تسليحى بهبات واضحة قاطعة . لقد كان شأنى دائماً شأن « جحش » عثرنا عليه ثم اطلقنا عليه اسم « الفيلسوف » خرج إلى الحياة منذ يومين فانصرف عن « زجاجة اللبن » الى مرآة الخزائن يتأمل نفسه ! أنا كذلك انصرفت منذ عهود الصبا عن مباهج الحياة التى تغرى الشبان والفتيان إلى تلك المرآة التى أرى فيها نفسى . على أنه تأمل ، هو أبعد ما يكون عن تأمل « نرسيس » لنفسه فى مياه الغدران . لم يكن تأمل الزهور والافتتان . بل تأمل الباحث الحيران . إنى من أشد الناس تنقيباً فى أنحاء نفسى . لأنى أعتقد أن الطبيعة لم تسخ علىّ . فلم تمنحنى لمعاناً ولا بريقاً . انى جسم معتم . أضىء كما تقولين بما ينعكس على أديم نفسى من أفكار . ولا شىء غير ذلك . أما فى الحقيقة فأنا أرض قحلاء جرداء كلها صخور وأحجار ، لا يمكن أن يأنس إليها آدميون . هل سمعت بأحد يعيش فى المجتمع

بلا أصدقاء . أنا أعيش منفرداً بلا أصدقاء لا أرى أحداً إلا لماماً ، للتحدث قليلا فى شئون الأدب أو الفكر أو الفن . . . أناس من أهل مهنتى . تقضى الضرورة أن ألقاهم . أما أكثر أيامى فأنا بعيد عن المجتمع ، لا أسأل عن أحـــد ولا يسأل أحد عنى . لأنى لا أملك صفة من تلك الصفات التى تجذب الناس إلىّ أو تغريهم بصحبتى . فاذا انفقت الوقت بحثا وتنقيباً فى أرجاء نفسى الموحشة المقفرة فانما يدفعنى إلى ذلك الأمـــل فى أن استكشف فى بعض شعابها معدنا نفيساً له شىء من البريق . . . وسكت . ولم تجرؤ السيدة على الكلام . فقد بدا عليها بعض التأثر . وارادت أن تقول شيئاً . وإذا أحد المدعوين يقبل عليهـــا فيشاغلها بالحديث . وأطبقت أنا عينى واستسلمت لتخيلاتى . وتعاون الليل الجميل مع النسيم اللطيف فحملا النوم إلى جفونى فما شعرت بشىء حولى . الا وقع غطـــاء خفيف من الصوف قد ألقته على جسمى يد رفيقة . ثم همسات تصل إلى وعيي بين ســـاعة وأخرى كلما خفت اغفاءتى لسبب من

الأسباب وكان يخيل إلىّ أحيانا أنى اسمع بعض الحاضرين يقول:
أهو نائم ؟

فيقول صوت عذب لأحدى السيدات :

كنت أريد أن ألقى عليه سؤالا .

فيجيبها صوت آخر :

لا توقظيه . أن نومه عميق .

فتقول :

— عجبا له . كنا نحب أن يتحدث الينا . ولكنه قضى السهرة . . غير ساهر .

فأجابها صوت أعرفه :

— إنه كذلك فى أكثر الاجتماعات التى شاهدته فيها : حاضر وغائب . ومعنا وليس معنا .

ثم انصرفوا إلى شأنهم وضحكهم ومرحهم ، إلى ان ذهب أكثر الليل وحانت ساعة الأوبة . ووجدوا ألا مناص من إيقاظى . فأيقظونى ، وأعدوا مكانى من السيارة ، فودعتهم وأنا نصف يقظان . . .

١٣

زارنى صاحبي المخرج فى اليوم التـــالى وقال لى فى نبرة يخالطها شيء من السخرية الخفيفة :

ـــ أرجو أن تكون قد نمت نوما هنيئاً فى سهرة البارحة .

فقلت له :

ـــ لعل ذلك لم يضايق ضيوفك .

ـــ مطلقاً . لو حدث ذلك من غيرك لكان له معنى آخر . أما انت فتستطيع أن تفعل ما تشاء .

ـــ ماذا تقصد ؟

ـــ اقصد أن للفنان حرية لا يتمتع بها الآخرون ، لقد كان المصور الشهير « بيكاسو » يحضر بعض الحفـــلات الساهرة برداء العمل الملطخ بالأصباغ فى حين أن الآخرين ما كان يباح لهم الحضور بغير « الفراك » .

ـ شكراً على هذه الحجج الكريمة والاعذار الجميلة التى تتحلها لى .

ـ بل هو الواقع ... لم يكن لى عليك إلا مأخذ واحد !

ـ واحد فقط ؟

نعم ... لقد أثرت عن عمد موضوع الحوار . وكنت أحسبك تتكلم قليلا فى الحاضرين ..

فقاطعته :

ـ انا اتكلم فى الحاضرين ؟ ! من قال لك ان من طبيعتى أن اتكلم فى حاضرين أوغائبين .

فقال وهو ينظر إلىّ ملياً :

ـ كنت أجهل طبيعتك أما الآن فقد فهمت .. ؟ انك لاتتكلم فى الناس . ولكنك تصنع الحوار الذى ينبغى أن يتكلم به اشخاص قصتك .

فنظر إلىّ نظرات القلق وقال :

ـ أولا تستطيع ذلك ؟

ـ لا أستطيع .

فبدا عليه انه لم يفهم عنى . ولبث ينظر إلىّ نظرات الاستفهام وينظر إيضاحا . فقلت له :

ـ لقد تبين لى شىء كنت أجهله قبل أن أراك : إن الكاتب الحق لا يمكن أن يلذ له العمل للسينما . ذلك أن السينما تخضع كل شىء لإرادة المخرج . فمخرج السينما هو المنسق لكل شىء وهو الخلاق الذى يطبع العمل كله بطابعه . فما صانع السيناريو وما واضع الحوار وما مهندس المناظر والأصوات وما المصورون وما الممثلون الخ الخ إلا عناصر متفرقة وأجزاء اشتات ، المخرج جامعها وموحدها وموجهها إلى حيث يصبها فى القالب الذى يريد . مثله مثل الكاتب فى ميدانه . فالكاتب الحقيق هو أيضاً ذلك الذى يخضع كل شىء لمشيئته ، هو الذى يجمع الصور والمشاهدات والملاحظات والتجاريب الشخصية وحوادث المجتمع وأخبار التاريخ وأساطير الأقدمين ، ويستخلص من كل هذا أو من بعضه عناصر

وأجزاء يؤلف من بينها عملا فنياً واحداً قائما بذاته . إن الكاتب الحقيق ليس ذلك الذى يرصف فى لغته جملا فخمة وعبارات جميلة إنما هو ذلك الذى يخلق عالما زاخراً بالأشخاص التى تحيا وتسعى وتشعر . دون أن يحتاج فى إنشاء هذا العالم إلى غير قلبه وحده . فشكسبير وموليير وجوته كتاب حقيقيون لأن قصصهم التمثيلى استطاع أن يبرز للانسانية عوالم هائلة رائعة تقوم بنفسها بمجرد القراءة دون الالتجاء إلى مسرح وممثلين ولو أن آياتهم وآثارهم احتاجت كل الاحتياج إلى التمثيل لتقوم على أقدامها لما سميناهم كتابا . الكاتب الحقيقى هو دائماً كل لاجزء ، بل أن طبقات الكتاب تختلف باختلاف قدرتهم على هـــذه الكلية وهذا التمام . فالكتاب العظام فى نظرى هم أولئك الذين منحتهم السماء كل مفاتيح المشاعر البشرية ، فهم قديرون على الأبكاء والأضحاك والارتفاع بالمشاعر والأفكار إلى قمم الخيـــال والشعر والتصوف ، والهبوط بها إلى أرض الواقع والطبيعة الدنيا . من أجل ذلك كان أيضاً هؤلاء الثلاثة

الذين ذكرتهم كتاباً عظاماً كاملين ، فشكسبير فى كوميدياته ودراماته وشعره ، قد طاف بكل ما عرفه الانسان من مشاعر وتألقت أعماله بكل أشعة الكون الفكرى المعروف ، وكذلك موليير قد أثبت فى بعض قصصه أنه قدير على الجد قدرته على الهزل . أما جوته فهو العبقرية الجامعة الشاملة . فى حين أن كثيرين غيرهم اقتصرت عظمتهم على ناحية من نواحى الاحساس الانسانى ، فجاءت عوالمهم التى خلقوها كواكب رائعة باهرة ساجحة هى الأخرى فى الكون الفكرى ، ولكن أشعتها لاتحتوى على كل ما فى قوس قزح ، هذا الكون من ألوان وأضواء وأنوار . ثم إن الكاتب العظيم كالمخرج السينمائى يستطيع أن يضع طابعه على أعمال أجزاؤها ليست من صنعه فشكسبير قد هبط على كثير من القصص الأيطالى ، وموليير على كثير من القصص الأسبانى ، وجوته على كثير من أساطير القرون الوسطى . فالكاتب العظيم كالفاتح العظيم يقع أحيانا على أرض ليست له ، فيخضعها لسلطانه ، ويقر فيها نظمه

وأحكامه ، ويصبغها بلون تفكيره وحضارته ، ثم يضع عليها راية عبقريته ليعترف بها التاريخ .

وأطرقت فى صمت ، فالتفت إلى صاحبي قائلا فى صوت حزين :

ـ والنتيجة ؟

فنهضت وأحضرت أوراق قصته فدفعتها إليه . وأخرجت دفتر الشيكات وقلت :

ـ النتيجة أن أرد ما لكم ونفسخ العقد .

فوجم الرجل . وأطرق لحظة . ثم رفع رأسه وقال :

ـ أرجو أن تتريث قليلا وأن تسمح لى أن أغلظ لك فأقول انك أكسل من رأيت . وان كل هذا الكلام الذى قلته الساعة ليس سوى حجج تؤلفها لتدفع عنك عبء هذا العمل ولكنى أحب أن تفكر فى الأمر مليا . لأن إنسحابك صدمة لى لن ترضيك . ففكرت قليلا ثم قلت :

ـ لعلك مصيب . وربما كان الحر والتعب وجهد العام . .

على كل حال ... لا أمل لى فى العمل هنا . وموعد السفر قد دنا . فاذا رأيت أن احمل السيناريو معى إلى سويسرا : فانى واثق أن الحوار يتم فى خلال أسبوعين فوق تلك الجبال الجميلة . والبحيرات الرائعة والهواء النقى . وأن المواصلات بالطائرات يسيرة سريعة . فاذا شئت فانى أبعث إليك ما أصنعه أولا بأول . فيصلك بعد يومين . وإذا شئت فانى التقى فى فرنسا بعد ذلك بالمسيو « . . . » لأعينه على وضع النص الفرنسى ..

فما قولك ؟

فتفكر الرجل لحظة . ثم قال :

— لا أستطيع أن أعدك بشىء ينبغى أن أتدبر الأمر مع المصور والمساعدين . . لأرى إذا كان فى الإمكان مباشرة العمل بغير الحوار فى بعض الأجزاء فنتجنب العطلة الطويلة . .

ونهض وانصرف على أن يذهب إلى الريف فى صباح الغد الباكر ...

١٤

مرت الأيام . ولم يبد لصاحبي المخرج أثر . ولم يبق غير يومين على رحيل الباخرة التي كنت قد حجزت فيها مكاني . فلم أقلق ولم أهتم . فما كان شيء يستطيع أن يحول بيني وبين الخلاص من جحيم الصيف في القاهرة وقلت في نفسي : سأحمل معي قصته وأكتب له من أوروبا ، ولعلي أبعث إليه بجزء من الحوار ليطمئن قلبه . وسافرت في اليوم التالي إلى الإسكندرية . ثم أبحرت . ثم بلغت « لوسرن » حيث حضرت الكونسير الأولى للموسيقى « توسكانيني » وهنا نسيت كل النسيان مصر وشئون مصر . ولم أذكر سيناريو . ولا سينما . ولا مخرجا ولا حواراً ونسيت حتى أن أكتب إليه لأخبره برحيلي ومكاني بل نسيت حتى حماري « الفيلسوف » وأحواله وأطواره ومرآته وتعاليمه وما جرى له وما يجري له ... وتركت سويسرا إلى فرنسا . وتنقلت في جبال السافوا العليا

وغمرت نفسى فى راحة مطلقة . وذهنى فى ركود تام فلم افتح صحيفة ولم اقرأ كتابا . ولم أحـــرر خطابا . ولم أحمل قلما ولا ورقا . وإنما حملت فى يد عصا الجبـــل ذات الطرف الحديدى وفى الأخرى عصـــا السمك وعلبة الطعم اطوف بهما على البحيرات الصغيرة أحاول عبثاً اصطياد سمكة من تلك الأسماك التى تسبح تحت أنفى وتسخر من طعمى ...

وأقفلت راجعـــا إلى مصر قبيـل شهر سبتمبر . فوجدت فى انتظارى خطـــابين مسجلين من محامى الشركة يشيران إلى العقد وأمر تنفيذه . وإلى التبعة التى نتجت عن التأخير . فأفقت فى الحال من أحلام الصيف . وتذكرت كل شىء . فأخرجت كراسة السيناريو من الحقائب . ووطنت العزم على العمل . فقد بعثت الرحلة فى نفسى النشاط . فأقبلت على مطـا لعة القصة وأنا أقول لنفسى : « فلأصنع شيئا على الاقل ثم أتصل بالمخرج ليرى أنى لم أنسه طول الوقت ، ولـكن المطالعة ما كانت تزيدنى إلا اقتنـــاعا بأن هـذا العمل مستحيل . فأشخاص القصة

بعيدون عن مشاعرى كل البعد . فأنا لا أراهم . ولا أعرفهم. انهم غرباء عنى . كيف يطلب إلى أن أضع فى أفواههم كلاما ، كما يضع طبيب الاسنان « اطقم » ذهبية فى أفواه الناس ؟ فطرحت الاوراق يائساً . ونهضت أكتب إلى المخرج كى يقابلنى . وأنا أصيح فى الحجرة :

— ينبغى أن افهم هذا الرجل أخيرا أنى لا أصنع كلاما لأشخاص . وإنما أصنع أشخاصا يتكلمون !

* * *

كان جو العالم السياسى فى ذلك الحين قد اكفهر اكفهراراً ينذر بالويل . فقد طغت شهوة الاستعباد فى نفوس شعوب تسمى أنفسها « راقية » فنبذت تعاليم أولئك الذين عرفوا أنفسهم فكشفوا للإنسانية عما فى نفسها من جمال وصفاء ، وسلمت أمورها لاولئك الذين جهلوا أنهم جهلاء فأيقظوا فيها غرائز الجشع والظلم والدماء . .

وما كاد المخرج يعلم بوجودى فى القاهرة ، وكانت قد بدأت

مجزرة الوحوش البشرية فجاءني يقول :

ـ لقد أوقفت الحرب بالضرورة أعمال هذا الشريط وسنرحل بعد أيام . وأرجو المعذرة للخطابات المسجلة فان سفرك وانقطاع اخبارك اضطرنا إلى هذا الاجراء لندرأ عنا أمام الشركة مسؤلية التأخير . فقلت له :

ـ والعقد الذى بيننا ؟

فأجاب :

ـ قائم بالطبع لحين استئناف العمل .

ـ متى ؟

ـ بعد الحرب .

ـ لقد كنت افكر فى طلب الغاء هذا العقد .

ـ لماذا ؟ لاتيأس بهذه السرعة . الوقت أمامك الآن متسع للتفكير الطويل والعمل البطىء وسنخطرك بالطبع عند الاحتياج اليك .

وسوّى أمرى مع هذه الشركة على هذا الوجه وحل

الموقف مؤقتاً على الاقل ، هـــذا الحل غير المنتظر . واطمأن قلبي كل الاطمئنان . فقلت لصاحبي المخرج :

ــ هلم معى إلى مطعم الفندق . إنى أدعـــوك للعشاء . . .

فقال لى وهو يهبط معى بالمصعد إلى قاعـــة الطعـام فى الطابق الاسفل :

ــ أرجو ألا يكون عشاء الوداع .

ــ أرجو ذلك .

وجلسنا إلى المائدة فبادرنى قائلا :

ــ عندى لك خبر محزن .

فالتفت إليه قلقاً :

ــ ماذا ؟

فأجاب فى صوت الآسف :

ــ صديقك « الفيلسوف » . .

فقاطعته :

ــ مات ؟

— يوم إبحارك .

وا أسفاه ! لقد كنت نسيته . إنى ناكث للعهد . وتصورت منظره ورزانته وصيامه . . وقلت :

— لقد كان جميلا زاهدا حكيما !

فقال المخرج :

— لاتحزن ، سأبعث اليك بصورته التى التقطناها له .

فقلت كالمخاطب لنفسى :

صورته ! نعم أذكر يوم التقطتم له هـذه الصورة ...

ثم تخيلته يوم وضع رأسه فى كفى . . . كأنه يفكر . لو أنه كان يفكر مثلنا برأسه ... ذلك الجهاز المحدود التفكير . آه ، لقد استطاع هذا الفيلسوف الصغير أن يبلغ قمة « الصفاء » . تلك القمة التى طمع « جوته » فى أن يبلغها يوما . لقد استطاع هذا الصديق الراحل أن يرى الحياة والموت من ثقب واحد . وأن يرى الكائنات المتحركة والجامدة من عين واحـدة وأن يخترق الكون كله بجسمه الصغير النحيل فى يومين ويمضى

وأن يتوهم أنه زعيم خطير أو مفكر بصير . إن هـــذا الشيء الحقير الذى سميناه جحشنا ، هو فى نظر « الحقيقة العليا » مخلوق يثير الاحترام . فى حين أن كثيرا ممن سميناهم زعماء وعظماء فركبوه ، ولم يبصروا الغرور وهو يركب رؤوسهم ، هم فى نظر « الحقيقة العليا » مخلوقات تثير السخرية ! نعم لقد كنت أشعر دائما شعوراً غامضا أن حبى لهذا الجحش هو حب مقترن بشيء آخر غير العطف والاشفاق . إنه التقدير والتبجيل . احمـــد الله أنه مات قبل أن يكبر فيركب . انى كنت أخجل من ذلك ولا ريب . لأنى كنت أسمع فى كل خطوة من خطواته المتزنة همسات تتصاعد من أعماق نفسه التى فى عمق المحيط « أيهـــا الزمان ، أيهـــا الزمان ! متى تنصف أيها الزمان فأركب . فأنا جاهل بسيط أما صاحبى فجاهل مركب !! .

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072538919